شرف الدين عكري

إلى مُهْلِكَتي

المؤلف : شرف الدين عكري

الكتاب : إلى مهلكتي

النوع : مجموعة قصصية

الطبعة : الأولى (2021)

رقم الإيداع :23088/ 2021

الترقيم الدولي : 978 – 977 -6916 - 32 - 6

تنسيق : نور حمادة nurhammade4@gmail.com

البريد الإلكتروني للمؤلف : ronalidyaz@gmail.com

إهداء

إلى روح الريس شيخ الرواية العربية حنا مينه رحمه الله.

نبذة عن المؤلف :

الاسم الشخصي والعائلي : شرف الدين عكري

من مواليد مدينة سلا بتاريخ 17 غشت 1992.

- **أستاذ التعليم الابتدائي، روائي، قاص، وكاتب خواطر.**
- **حاصل على شهادة الباكالوريا شعبة علوم التدبير المحاسباتي.**
- **حاصل على شهادة الإجازة في الدراسات الأساسية شعبة الاقتصاد والتدبير من**

جامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس

- **حاصل على شهادة التأهيل التربوي من المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين**

بفاس.

- **صدرت له مجموعتان قصصيتان عن دار زوسر للنشر والتوزيع بمصر :**
  - **المجموعة القصصية الأولى تحت عنوان "إلى مهلكتي"**
  - **المجموعة القصصية الثانية تحت عنوان "فسيفساء"**
- **صدر له كتاب مجمع للقصص القصيرة عن دار عابر للنشر والتوزيع بمصر.**
- **فائز في مسابقة عابر الثقافية للقصة القصيرة (عابرون الإصدار الرابع معرض**

القاهرة الدولي 2022) عن القصة القصيرة "غفوة".

- **حائز على المرتبة الأولى في مسابقة القصة القصيرة للنادي الأدبي تلاقي بركان في نسختها الثالثة عن القصة القصيرة "فيضان النهر"**
- **حائز على المرتبة الثالثة في مسابقة القصة القصيرة للمقهى الأدبي تلاقي جهة الشرق في نسختها السادسة، عن القصة القصيرة " قماشة الأحلام"**
- **فائز في عدة مسابقات للخاطرة الأدبية (الرابطة الموريتانية للأدب والثقافة دورة 2021 - لؤلؤة الأدب...)**

إلى مُهْلِكَتي

كلما توغلت السيارة في دروبها بين سفوح ومنعرجات جبال الريف الشامخة، حيث الطبيعة الخلابة والهواء النقي، إلا واستشعر يونس راحة من نوع خاص، فقد كان يحتاج إلى تغيير الأمكنة التي أصبحت تغذي جرحه مؤخراً.

جلس إلى جوار النافذة، فطفق يستقبل معالم المكان الجديد بنهم المتطلع إلى اكتشاف المزيد من الأسرار. ولأول مرة رأى حقولا ممتدة من القنب الهندي، فالمكان الذي تم تعيينه للتدريس فيه معروف على الصعيد العالمي بزراعة وإنتاج القنب الهندي.

- هل اقتربنا قليلا ؟ سأل يونس السائق.

فرد السائق، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ودودة :

- أجل .. بقي القليل فقط يا أستاذ.

فعاد يونس إلى أفكاره وعالمه الداخلي، وقد غمرته سعادة على غير المتوقع، فالأولى أن يرافق تعيينا في مكان مقفر كهذا قلق ودهشة، وخوف من المجهول. غير أنه أقبل على التجربة الجديدة كمن يواجه حكم الإعدام بإقدام وشجاعة.

وما إن أوصله السائق إلى المدرسة، حتى ألفى المدير بانتظاره، فاستقبله ببرودة، وأطلعه بموعد الاجتماع المخصص لتدارس مستجدات الدخول المدرسي، ثم تمنى له الحظ الطيب، وأغلق في وجهه باب حجرته الوحيدة، حيث كان يقطن ويمارس مهام وواجبات المدير أيضاً !

أقعى يونس، وبجانبه أغراضه التي استطاع إحضارها. فأشعل سيجارة وجعل يعب منها أنفاسا متلاحقة. وفي سورة النشوة الكبرى بالتيه، التمعت في ذهنه فكرة أحد أصدقائه، والذي كان قد نصحه بالتوجه إلى المسجد في حال ما ساءت الأمور معه. ودون تردد قصد مكاناً

مرتفعاً، فرأى مئذنة المسجد، ورصدها، ورأسا توجه صوبها. وفي طريقه أخذ يستمتع بمنظر المياه المتدفقة من الشلالات، وقد تزينت بصفائها الأنهار، واحتضنت عذوبتها الجداول والبحيرات. وكم استكانت مهجته للخضرة التي تطبع المكان ! فانشرح صدره، وامتلأت نفسه أملا، فأيقن بأنه أخيراً حصل على المكان الذي سيخلصه من ذكرى ووجع حبيبته التي تزوجت مؤخراً، مفضلة الهجرة مع زوجها إلى فرنسا، وعدم ترك مصيرها معلقاً بتعيين في آخر الدنيا .

ولما بلغ المسجد وقع بصره على حزم من القنب الهندي، كانت قد وضعت على طول سور المسجد، وبمحاذاة بابه. وفي وقت لاحق أدرك أنها من نصيب الفقيه، وأنها جزء من أجره السنوي !

انتظر يونس حتى موعد صلاة المغرب، فصلى مع من أتوا، وأخبرهم بهويته، ولما هو محتاج. فعرض عليه الفقيه الإقامة في غرفة ملاصقة لغرفته بشكل مؤقت، وأطلعه بأنها مخصصة لجلسات أهل القرية الليلية، وإن هم صبروا ليلة فلن يصبروا أكثر.

في الصباح سمع يونس طرقا خفيفاً على الباب، فانتصب واقفاً، وجعل يعدل ملابس نومه، قبل أن يستقبل الزائر. وكان الطارق رجلا قد جاء باكراً يعرض على الأستاذ الجديد كراء شقة صغيرة، مهابة أن يسبقه شخص ما إلى غنيمته. وقد كان متصفا بالجشع، محباً للمال حد العبادة. كما كان يبيع لأهل القرية الخضر، والفواكه، والسمك، وغيرها من المواد الغذائية بثمن مرتفع، متحججا دائماً بوعورة المسالك، وصعوبة إحضار منتوجاته.

وأما يونس فاكترى منه الشقة عن طيب خاطر، وهو الذي كان يقدر موقفه جيداً وخياراته المعدمة. وقبيل التحاقه بمسكنه الجديد عاد إلى المسجد، فأخذ أغراضه، وشكر الفقيه على معروفه.

...

- هل أنت هو معلمنا الجديد ؟ صاحت تلميذة من بين الجالسين والجالسات على

المقاعد الخشبية.

- نعم. رد يونس، وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة.
- تبدو صغيراً جداً ! قالت الطفلة باندهاش، فانطلقت ضحكات الصغار معلنة عن موافقتهم لرأي زميلتهم.
- ما اسمك يا صغيرتي؟ هتف يونس بهدوء، وهو يحيط بنظراته الطفلة.
- اسمي ...

وما إن تناهى إلى سمعه اسمها حتى اتسعت حدقتا عينيه من شدة الدهشة، فقد كان شبيها باسم حبيبته !

لحظتها أدرك بأن الأقدار مصرة على تعذيبه، والتلذذ برؤيته يعتصر حزنا وكمدا. بيد أنه ابتسم، فتقدم من الصغيرة وربت على كتفها. ومن فوره أنشأ يوزع الهدايا على الجميع ترحيباً بهم.

ومع تصرم الأيام عرف بأسلوبه الخاص في العمل، فأثناء فترة الاستراحة كان يتجنب تجمعات زملائه مكتفيا بإلقاء التحية، وكان يتوارى عن الأنظار كلما استبدت به الحاجة لتدخين السجائر. وكم كان شديد الحرص على عدم مشاهدة متعلميه له وهو يدخن !

سلوكه هذا وابتعاده عن مخالطة أصدقائه أزعجهم، غير أنه في الوقت عينه كان يحظى بتقديرهم. وذلك راجع لتفانيه في العمل، والتزامه بالوقت بشكل دقيق. فلا الثلوج حالت مرة بينه وبين أداء واجبه، ولا السيول الجارفة، ولا الأمطار والعواصف. طريقة نهجها طيلة سنوات عمله هناك، إذ لم يجد يوماً أي داع لإقحام الآخرين في عالمه الخاص، وإفساد عزلته عليه. وقد أجاد كذلك الطبخ بشكل احترافي، وما انفك يوفر لنفسه دائماً الأدوات اللازمة، من ثلاجة وفرن وغيرهما من أدوات المطبخ.

أما فصل الشتاء، فكان أحب الفصول إلى قلبه، بثلوجه وبمنظرها الذي يسلب الألباب. ومن نافذة غرفته كان بياضها الناصح يشده مطولا، ويحتم عليه إشعال الموقد طلباً للدفء.

وفي الليل كان قد ألف أن يأخذ بين يديه رواية، ويضع أمامه قدحه المملوء خمرا، ويتيه في عوالم أخرى. حتى يستحضر ذهنه صورة حبيبته، فيهيم على وجهه كرة في تخيل حياتها الجديدة وهي سعيدة بزواجها وعيشها الرغيد في باريس أو إحدى المدن الفرنسية الأخرى. وكرة أخرى كان يتذكر ضحكتها، وابتسامتها، ووعودها له بأنها وهبت نفسها له، وأنها ستبقى على العهد إلى آخر المشوار، فيشتعل في دواخله لهيب التوق إلى وجهها المشرق. وكم مرة تمناها بقربه حارة كنيران موقده، شبقة كعادتها في حضنه ! وأما نصيبه الأوفر أبداً فكان التمزق ألما لفراقها.

ومن العادات التي لازمته أيضا، أنه كان كلما وجد سبباً إلا وأخرج أدوات رسمه، وأخذ ينفس عن مكامنه ولواعجه. جلسات كانت تدوم لساعات طوال، وكان يرافقه فيها صوت فيروز الشجي، وقدحه. وعندما كان يتناقص مخزونه من الخمر، أو الكتب، أو أوراق الرسم، كان يعود أدراجه في عطلة نهاية الأسبوع إلى مدينة فاس ويتزود بهم جميعاً.

لقد دأب على عزلته لسنوات طوال. غامضا بالنسبة للجميع، وشفافا أمام سيجارته وكأسه ولوحاته التي لم يرها أحد قط. إلى أن لفت الانتباه إليه بتغيبه عن العمل لأول مرة في مشواره المهني. غياب استمر ليومين، قبل أن يقرر مدير المدرسة، بمساعدة بعض الأساتذة، اقتحام شقته والاطمئنان على حاله. وما إن كسروا باب الشقة ودلفوا إليها، حتى فوجدوه ممددا على الأرض وبقربه قنينة خمر فارغة، وقدح مقلوب، وأعقاب سجائر، ولوحات مرسومة بقلم الرصاص لامرأة واحدة في أوضاع مختلفة !

وفوق الطاولة عثروا على ورقة كان قد كتب عليها بخط أنيق :

إلى مهلكتي أقول : ليس مرض الالتهاب الكبدي من قتلني، بل أنت. فروحي ماتت يومها، وبقيت بشغف أنتظر فناء الجسد.

اليتيم

عاش عبدو كجميع أبناء قريته الصغيرة، يقضي يومه كاملا في الاعتناء بالأغنام و تخريب أعشاش الطيور...

شقاوته وتفوقه على أقرانه في كل عراك ونزال هما ما ميز طفولته. ومع توالي الأيام بدأ الصغير يدرك أن أترابه يستخدمون كلمة "أبي" في غير ما مرة. أما بالنسبة له، فكانت الكلمة غريبة، وهو الذي لم ينطقها قط. فكان يؤثر التزام الصمت في حضورهم، ويكتوي بلوعة الحيرة إبان غيابهم. إلى أن قرر ذات مساء أن يفاتح والدته في الموضوع، فباغثها قائلاً بنبرة طفولية بريئة:

- الجميع يحكي عن والده، فأين هو أبي؟

فإذا بالأم تتسمر في مكانها، وإذا بلونها قد امتقع، وإذا بها قد اعتراها شعور بالتجمد، فأحست بالدم يتوقف في شراينها، ولا ريب أن كلمات صغيرها قد نزلت عليها كعاصفة شديدة. وما هي إلا أن أخذت تلملم من نفسها ما استطاعت، فأعادت فسخ وربط الوشاح على رأسها، ثم استدارت ناحية ابنها، وبكل ود خاطبته قائلة بنبرات تخفي ما جاش في صدرها من حسرة وأسى:

- اذهب يا صغيري وساعد أختك على جلب الماء وبعدها نحكي.

انسحب عبدو بخطى وئيدة، والكدر غيمة سوداء قد غطت صفو سمائه، فاتجه صوب البئر.

في حين انهارت الأم، وقد خارت قواها، فجعلت تردد باكية وفؤادها كسير :

- كبرت في غفلة مني يا بني.. لقد كبرت في غفلة مني.. ماذا سأفعل؟ وماذا سأقول لك؟

في الليل، وأثناء استعداده للنوم جاءته متسللة، فآوت إلى فراشه، واحتضنته بشدة. فقبلته بحرارة، وتفرست وجهه الملائكي كأنها تراه بعد غياب طويل، والحسرة تمزق نياط قلبها. لقد ذرفت دمعا غزيرا مالحا، قبل أن تصارحه بما تمنت عدم قوله في يوم ما، بيد أنها

أدركت بأن وقت البوح وقول الحقيقة قد أزف، ولا محيد عن الأمر. وبصوت متقطع متهدج قالت له :

- والدك توفي يا بني.

فأجابها الصغير باكياً :

- أي أنني لن أراه أبداً !
- أجل يا بني .. أجل ...

لحظتها تعالى صوت نحيب الزوجة الأرملة، وبكاء الطفل اليتيم، فتعانقا ، ولم يعلم أي منهما كيف نام ليلته تلك.

وتوالت الأيام كعادتها رتيبة مملة، إلى أن استفاقت الأسرة الصغيرة المكونة من عبدو ووالدته زهور وأخته الكبرى ثريا، ذات صباح على وقع زيارة مفاجئة لبعض نساء القرية، وهن في أبهى حلة. سارعت ثريا الخطى، فاستقبلتهن أحسن استقبال، وأجلستهن في بهو البيت. بينما انهمكت الأم في إعداد وجبة فطور تليق بالضيوف، وكلها همة ونشاط، ظنا منها أنهن جئن لخطبة ابنتها ثريا. في حين توارى عبدو وراء ستار باب الغرفة المجاورة، فأطرق يصغي ويراقب تفاصيل ما يجري.

تبادلت النسوة أطراف الحديث وأخبار القرية، فترحيب من هذا الجانب، فإطراء من الجانب الآخر. إلى أن انبرت للحديث ***خالتي رقية،*** هكذا كان يناديها الجميع. وكانت سيدة قد تجاوزت الخمسين بقليل، تطبعها وسامة جار عليها الزمن، غير أن تقاسيم ابتسامتها ظلت تشي بأنها كانت على قدر من الجمال والحسن ذات وقت مضى. وبالإضافة إلى إجادتها لكل ما يتعلق بشؤون النساء، من حمل وتوليد، فهي كذلك كانت سفيرة القرية للنوايا الحسنة عند نشوب أي شجار، أو خطبة، أو زواج ...

صاحت خالتي رقية بصوت عذب خفيض :

- لالة زهور نحن أهل وجيران، وعليه جئنا نطلب يدك، على سنة الله ورسوله، **للسيد قرطيط**.

صمتت قليلا، قبل أن تردف قائلةً :

- صحيح أنك أم لعبدو وثريا، وحق أيضاً أنك فقدت زوجك رحمة الله عليه، لكن للضرورة أحكامها الخاصة، والحياة تحتاج لرفيق نتقاسم معه صعابها. كما أن السي قرطيط يتعهد برعاية عبدو وثريا كأنهما أبناؤه من صلبه ودمه.

دار دولاب الزمن سريعاً بزهور، ولم تع جيداً ما سمعت إلا بعد مرور بضع ثوان، فجاء ردها قاسياً عنيفاً :

- أتأسف لقول ما سأقوله خالتي رقية، فمجيئك عندي غال جداً، غير أنني حقاً لا أستطيع وضع حمار مكان حصان عربي أصيل.

اجتاحت عبدو حيرة شديدة، فقد أحزنه ما سمعه من الخالة رقية، لكن بالمقابل أجذله قول أمه. وكم هش قلبه وهو يراقب النسوة يغادرن المنزل، وبحوزتهن ما أحضرنه معهن من سكر وحليب !

فأما الخبر فقد انتشر في جنبات القرية كالنار في الهشيم، وأما قرطيط فصار مادة صائغة وحديثا على كل لسان، فمنهم من أكد بأن حصانا عربياً أصيلا ميتاً أفضل بكثير من حمار حي. ومنهم من قال بأن قرطيط قد اعتزل في بيته ولم ير نور الشمس طيلة يومين كاملين ! قرطيط هذا الحشري الحسود نقم على المرحوم في حياته، وتجرأ عليه بعد مماته. لكن زهور صفعت هذا الكلب الأجرب، ولقنته درساً قاسياً لم يستطع معه رداً إلا تحين الفرصة المناسبة.

لم يمر الأمر برداً وسلاماً على عبدو هو الآخر، فقد تجاسر عليه أحد أصدقائه، وحاول التنمر عليه ونعته بابن قرطيط، لكنه سرعان ما انبرى له، فطرحه أرضاً وشد شعره بعنف حتى توسل إليه، ووعده بعدم تكرار قوله.

ولما لمحت زهور الانزعاج في عيون ثريا وعبدو، طيبت خاطرهما بكلماتها العذبة الشفافة، مؤكدة أنها كرست حياتها لهما منذ ولادتهما وبوجود والدهما، أما الآن وقد غاب وجهه العزيز فقد ازدادت تعلقاً بهما، وزاد استعدادها للتضحية حتى الرمق الأخير من أجلهما.

كلمات كان لها وقع أثير في النفوس. ومعها طويت صـــفحة قرطيط ولو إلى حين، لأن ذنب الحمار هذا ماكر ولن يتردد في إرجاع الدين والصاع صاعين. أمر تدركه زهور جيداً، غير أنها لا تعلم كيف ستواجهه !

...

- هل رأيت فستاني؟ هتفت ثريا مخاطبة أخاها عبدو.

فأجابها الصـغير نافياً بحركة من رأسـه، ودون أن يكلف نفسـه عناء النطق بأي حرف. لكنه ظل يعاين أخته ثريا، التي بدت وكأنها على عجلة من أمرها، وهي تبحث عن فستانها وسط فوضـى الغرفة، حتى إذا عثرت عليه، ارتدته ووقفت منتصـبة بقامتها الرشـيقة أمام المرآة، فجعلت تعدل وشاحها، وتضـع كمية من المساحيق على وجنتيها، ثم انصـرفت بسرعة وهي تقول له :

- إذا عادت أمي قبلي فأخبرها أنني عند صديقتي لمياء. لقد طلبتني في أمر مستعجل.
- ...
- اتفقنا حبيبي عبدو؟
- أجل اتفقنا ..

أثارته حركات ثريا مؤخراً، وهي التي أصبحت تهتم بشكلها أكثر من ذي قبل، وتقضـي وقتاً طويلاً أمام المرآة. كما أضـــحت تختفي من حين لآخر! وهذا ما اســتدعى من عبدو محاولة معرفة ما تفعله أخته من وراء ظهره، بل من وراء ظهره وظهر أمهما على حد سواء . فهل تراها تكون على علاقة غرامية مع أحدهم؟ ربما الأمر كذلك وهي التي صـارت تنضـح ألقا وجمالا، كشجرة تفاح أينعت، فأزهرت، ثم أثمرت.

قبيل عصـــر أحد الأيام لاحظ عبدو أخته ثريا تهم بالخروج، وهي على قدر من الزينة والتطيب، فأدرك أنها ذاهبة إلى ســرها. خرجت تثب كأرنب صـــغير، فإذا بخضـــرة حقول القمح والحشائش تبتلعها. إلا أن عبدو اقتفى أثرها، فلحقها متسللا، حتى إذا بلغت إلى شجرة كبيرة، جلســـت إلى جذعها منتظرة، وأخذت تعدل فســـتانها بين الفينة والأخرى. أما عبدو

فجلس يراقب من مكان بعيد. مرت بضع دقائق قبل أن يظهر من بين الحشائش شاب وسيم في مقتبل العمر. تفرس وجهه عبدو بنظرات فاحصة فعرفه، إنه نجيب ابن الحاج السلماني، طالب جامعي يتابع دراسة القانون، ويقال بأنه في انتظار حصوله على وظيفة في سلك الأمن.

- لكن هذا وغيره لا يشفع له التواجد مع أختي. هتف عبدو غاضباً.

وتابع مراقبته لما يحدث، حينها ارتمت ثريا في حضن نجيب، فتعانقا بحرارة، ثم جلسا إلى جذع الشجرة.

وفي طريق عودته إلى المنزل، داهمت عبدو عشرات الأسئلة، فدمدم باستياء:

- منذ متى وهما يلتقيان؟ هل رآهما أحد سواي؟ وماذا لو علمت أمي بأمرهما؟

لقد عقد عبدو العزم على إخبار والدته بالذي رآه هناك، لكنه فور وصوله لم يستطع أن ينبس بكلمة. لتظهر ثريا بعد ذلك بقليل، والسعادة تعلو محياها. عظيم ما يفعله العشق في أول أمره، إلا أنه وفي بيئة مليئة بحراس النوايا، يستحيل الخضوع لجماح العاطفة وفورة الشباب دون دفع ثمن ما.

في الليل ، استلقى عبدو فوق سريره متأملا سقف الغرفة التي تأويه وأخته. تنحنح قليلا لتنقية صوته، ثم قال، مصوبا سهامه باتجاه ثريا دون مقدمات :

- منذ متى وأنتما تلتقيان؟
- نلتقي ! من ! ماذا قلت !
- أجل.. منذ متى وأنت تلتقي بنجيب؟
- نجيب ! ماذا تقول أنت يا ولد؟
- لا داعي للتهرب، لقد تبعتك، فرأيتكما عند جذع الشجرة.
- ومنذ متى وأنت تتجسس علي؟ تكلم منذ متى؟

صاحت ثريا مرتاعة، قبل أن ترتمي على قدميه، وقد أجهشت بالبكاء :

- إياك أن تكون قد أخبرت والدتنا بالذي رأيته، إياك! إياك يا أخي!

فعانقها الصغير، وقال بلهجة رزينة تفوق عمره بكثير :

- لا تجزعي، فأنا إلى صفك، وتستطيعين الاعتماد علي.

ثم أضاف بنبرة حاسمة :

- لننم الآن، وغداً عندي كلام مع نجيب هذا.

أصابتها كلماته بالذهول، فصاحت به قائلة، وقد انقلب فرحها السابق حزناً بليغا :

- ماذا تقول ! ما الذي تقوله أنت يا ولد؟ أنت ولد صغير يا عبدو، كيف لك أن تقول هذا؟

- صغير أو كبير، لا يهم.

قال كلماته الأخيرة ثم استدار حاسماً النقاش. بينما ظلت ثريا صاحية تقلب ما آل إليه تهورها، خائفة مما هو آت. غير أن الذي صدر عن عبدو أسعدها، إذ منحها شعوراً بوجود رجل يشد أزرها في أيام العسر، ويفتديها إن اقتضى الأمر ذلك.

في الصباح، وبعد تناوله لوجبة فطوره، خرج الصغير قاصدا وسط القرية، فشيعته ثريا بنظرات متوسلة، وقلبها يردد دون انقطاع : أرجوك لا تفسد الأمر .. أرجوك ...

بحث عبدو عن نجيب، دون أن يسأل عنه أحداً تجنباً للفت الانتباه، حتى إذا عثر عليه، وقف أمامه منتصبا كنخلة تأبى أن تنحني حتى للرياح العاتية، و بشجاعة صاح به قائلاً :

- اسمع أنت، إياك والاعتقاد بأنك ستستغل ثريا كونها بلا أب يدرأ السوء عنها ! أحذرك عزيزي، وأقول لك، فإما أن تكون رجلا أو لا تكن.

ثم بنفس الحدة أضاف :

- أنتظر منك أفعالا لا أقوالا، فالرجال بالأفعال يعرفون.

بقي نجيب في موقفه مشدوها حسير الرأس.

- أيعقل أن هذا الكتكوت صيرني قزما أمامه !

هكذا خاطب نجيب نفسه بعد انسحاب عبدو، ثم أضاف :

- لا.. لا.. ليس كتكوتا هذا الولد. إنه شبل سليل أسد أطلسي.

لم يترك عبدو لنجيب أي خيار فقد قال له إما أن تكون رجلا أو لا تكن، كلمات تردد صـــداها بعنف، فخلفت ارتباكا وحيرة لديه، قبل أن يغمغم قائلاً :

- ماذا أفعل الآن؟ أنا في انتظار رد نهائي من إدارة الأمن. صحيح هذا الأمر، لكن لا شـيء مضـمون لحدود السـاعة، فقد كنت أنوي ترتيب الأمور جيداً قبل الإقدام على خطبة ثريا، لكن هذا الصغير بعثر أوراقي تماماً.

وقد تفاجأ نجيب من اليسر الذي تم به كل شـيء بدءاً بالخطوبة، مروراً بحصـوله على وظيفة كما تمناها في مدينة قريبة من قريته، وصـولاً لليلة الزفاف هذه في بيت والديه. وما أسـعدهما من عصـفورين جميلين ! تطبعهما الوسامة، ويزينهما الشباب، ويجمعها الحب الصـادق. الكل منشـرح الفؤاد، هنا الفرقة الموسـيقية، وهناك عبدو يراقص أمه ويلوح بيديه لنجيب ولســان حاله يقول :

- هكذا يفعل أبناء الأصول .

ومع ارتفاع الإيقاع والنفخ على المزمار، تطايرت سحب الغبار حاجبة الرؤية ومبشرة بفرح متدفق ...

فجأة دخلت طفلة وهي تصرخ بأعلى صوتها :

- النار، النار في بيت خالتي زهور..!

توقف العازفون ومعهم الراقصـــون، فأســـرع الجميع، بمن فيهم العريس نجيب، فلحقته ثريا متعثرة في فستانها الأبيض الناصح، والذي لم يعد كذلك جراء سقوطها المتكرر.

سـابق الجميع الزمن لإخماد النيران، لكن درجة اشـتعالها كانت أقوى من المجهود الذي بذل. وما زاد اللهيب توهجا هو وجود مادة نفطية اســتعملت في إشــعال الحريق، والذي أتى على البيت الطيني بأكمله.

صــدمة طمســت معالم فرحة الزفاف، بل أقبرتها تماماً. أشــبكت زهور يديها وراء ظهرها، وجعلت تبكي، وتردد بحسرة لاذعة : فعلها قرطيط .. فعلها قرطيط .. فعلها قرطيط ...

وهكذا أسدل الستار على تلك الليلة الظلماء، واختفى قرطيط تماماً كأن الأرض قد ابتلعته.

الغرفة 312

أدمنت الإطلالة الصباحية على وسط الساحة الجامعية من نافذة " تايتانيك" الشرقية في الطابق الرابع. وتايتانيك هو لقب أطلقه الطلبة على حيهم الجامعي، والأكيد حتماً أن من أطلق عليه هذا الاسم لم يواجه صعوبة في ذلك، فيكفي رؤيته والأنوار تزينه ليلاً حتى تدرك أنك حقاً على متن تايتانيك. وزادت دقة الاسم دلالة وتعبيرا عندما لاقى نفس مصير السفينة الشهيرة، فهي غرقت بحراً، وهو غرق برا بعدما تقرر هدمه. فأما غرق الأولى فخلف علاقة حب معلقة، وأما غرق الثاني فقد خلف عدداً لا حصر له من العلاقات الإنسانية، والذكريات، والأحلام المعلقة ...

مكاني الأثير ذاك كان يتيح لي رؤية أمواج الطلبة وهم يسارعون الخطى للوصول إلى مدرجاتهم قبل بداية المحاضرات. وكعادتي كنت أقف هناك، أرتشف قهوتي على مهل، وأتفرس الوجوه، وأحاول إعطاء أسماء لأصحابها. وفي بعض الأحيان كنت أتوقع حواراتهم أيضاً ! وعند انخفاض مستوى التدفق البشري، كنت أدرك بأن وقت استكمال الجولة في أروقة طوابق الحي الجامعي قد حان. فأبطئ خطواتي، وألتقط بنهم روائح القهوة والشاي المنبعثة من الغرف، وأرهف السمع لاستقبال ضحكات الصباح الأولى، والغمغمة الصادرة ربما بسبب نقاشات لم يكف الليل بطوله لوضع نقطة نهاية لها.

تابعت السير بخطى وئيدة، فسعيت ناحية النافذة الغربية لتايتانيك. ولما اقتربت من نهاية الرواق لمحت جسما بشريا يفترش الأرض، ويغط في نوم عميق ! وما هي إلا أن قفلت راجعا شطر الغرفة رقم 312 مهرولا مرتاعا.

ألفيت أصدقائي الثلاثة، الذين كنت أتقاسم معهم السكن، يهمون بالخروج للالتحاق بمدرجاتهم، فطلبت منهم دقيقة واحدة لتوضيح أمر مستجد. وبملامح تشي بما يجيش به صدري، وبصوت متقطع صحت بهم قائلاً:

- أ تدرون ما رأيته توا؟

فحدجني الثلاثة بنظرات استفسار. ومن فوري أردفت :

- لقد رأيت طالبا يفترش الأرض بالقرب من الدرج ناحية النافذة الغربية للطابق الرابع.

- وما شأننا نحن ! قال أكبرنا سنا وقد تلفع صوته بالبرودة. بينما التزم صديقانا الآخران الصمت.

- شأننا أن نعرض عليه السكن معنا، نحن أربعة وبإمكاننا إضافته تحت السرير.

قلت بحماسة.

- ولماذا نشدد الخناق على أنفسنا برأيك؟ رد صديقي بنبرة هازئة.
- كي نساعد هذا المسكين احتراماً لإنسانيتنا. قلت بالنبرة الحماسية عينها.
- أنت شخص عاطفي، وهذه العلة ستدفع ثمنها آجلا أم عاجلاً.
- لنترك القرار للتصويت. قلت هذا ورفعت يدي لانضمامه، فظهرت نتيجة التصويت سريعاً، وكانت ثلاثة مقابل واحد. فاستتليت قائلًا :

- الأغلبية تقرر والأقلية تنضبط. سأذهب لدعوته حتى ينضم للسكن معنا.

وكذلك فعلت، وما إن بلغت موضـعه حتى وجدته على الحال الذي تركته عليه، ملصـقا يديه برجليه من شدة البرد.

- مرحبا. غمغمت بصوت خفيض.
- ..
- مرحبا..

فحذق إلي بنظرات المســـتيقظ من نوم عميق. قبل أن ينهض بســـرعة، وهو يحاول تعديل ملابسه ومسح وجهه بيده.

- مرحبا يا رفيق..
- عذراً يبدو أنني أزعجتك؟؟
- لا.. لا إزعاج إطلاقاً. لقد غفوت قليلاً. رد بنبرة جامدة.
- هل تبيت هنا؟
- مؤقتاً.. نعم. أجاب وهو يرميني بنظرات وجلة.
- وهل عندك مكان تتدبره لاحقاً؟
- ليس لدي، لكنني سأتدبره.
- إذا كان يناسبك، فتعال لتعيش معنا في الغرفة رقم 312. لدينا مكان شاغر هناك.
- شكراً.. شكراً...
- حسنا نحن بانتظار قدومك.

قلت كلماتي الأخيرة، فانســحبت تاركا إياه يجمع شــتات أغراضــه. وبعد لحظات معدودات طرق الباب، ففتحت، فكان هو منتصـــبا بطوله الفارع وعينيه الداكنتين، يحمل في يده كتابا ويضــع على ظهره محفظة متآكلة. رحبت به، فعرفته على أعضــاء الغرفة، فبادلنا الترحيب بخجل وكلمات قليلة. ولما ســألناه عن اســمه، أخبرنا أن اســمه ســمعو. ولما ســألناه عن أغراضه، أشار بسبابته إلى الكتاب والمحفظة !

- وأين هي ملابسك؟ سألته بذهول.
- ها هي، فأشار إلى الملابس التي يرتديها !

لحظتها سحب صديقي بطانية ووسادة، فأشار إلينا بعينيه أن نقدم له ما استطعنا إليه سبيلا. وفي النهاية حصــل على ثلاث بطانيات، ووســادة، بالإضــافة إلى غطاء من القماش الناعم.

فتعاونا بعدها جميعا على قلب السـرير الحديدي حتى نحصـل على مكان إضـافي أسـفله، طريقة أتقنها الطلبة وأبدعوا فيها أحيانا.

وهكذا انتهت مراسـيم الترحيب بالزائر الجديد. فجلسـت إلى طاولتي، مكاني المفضـل الذي قضـيت فيه معظم وقتي، حتى أراجع اسـتعداداً للامتحانات الموشـك موعدها. بيد أنني لم أستطع التركيز، فقد فكرت مليا في موقف صـديقي الذي عارض استقدام الطالب الجديد لما أُثيرت المسألة، وكيف كان أول من سحب البطانية والوسادة فور وصوله ! فكرت أيضاً في قوله أن لعنة العاطفة سـتصـيبني لا محالة. فهل صـحيح ما قاله؟ وكيف لي أن أدفع الثمن كوني عاطفيا ؟ أليست العاطفة هي أنبل شعور إنساني ؟

...

اسـتيقظت ذات صـباح، وكانت عندي محاضـرة أحرص على حضـورها، فأخذت أسـارع الزمن حتى أصـلها في الوقت المناسـب. أشـعلت الموقد، فوضـعت فوقه إبريق الشـاي، وباشرت في ارتداء ملابسي. وقتذاك أثار انتباهي حركة في مكان سمعو، فناديته:

- سمعو؟
- نعم ..
- ألم تستيقظ بعد؟
- بلى ..
- هيا إذن .. اخرج من مكانك، وشاركني وجبة الفطور يا رفيق.
- لا أستطيع ..
- وما بالك لا تستطيع !
- انظر خلفك !

اتجهت ببصري صوب شرفة الغرفة، فرأيت سروالاً فوق حبل الغسيل.

- ذلك سروالك يا سمعو فوق حبل الغسيل؟ صحت بسمعو.
- هو كذلك سروالي الوحيد. اضطررت لتنظيفه وأنا هنا بانتظاره حتى يجف.
- قم سأعطيك واحداً !
- شكراً .. لكن مقاسك ليس كمقاسي.

وكذلك فقد كان مقاسه أكبر من مقاسي. وبقلب واجف غادرت الغرفة ذاك الصباح، وعلى المائدة تركت لسمعو إبريق الشاي، مع قليل من الزيت في الصحن.

وفي يوم آخر دلفت الغرفة على حين غرة، فوجدته يمزق أطراف قميصه، فبادرته مستغربا :

- ماذا تفعل ؟

فأجابني، وقد فاجأه حضوري المباغت :

- أنا .. لاشيء .. أحاول .. أحاول فقط صنع جوارب.
- ماذا قلت ! تصنع جوارب ! أرجوك توقف.
- ..

وبأسف أضفت :

- صحيح أننا فقراء من الطراز الرفيع، غير أن ما أنت عليه من حال يرعبني يا رجل.

قصدت خزانتي، فأعطيته زوج جوارب، وعانقته صامتاً. وفور مجيء أصدقائي قصصت عليهم ما رأيت، فأشفقنا من حاله، وعقدنا العزم جميعاً على مساعدته أكثر من ذي قبل.

في الليل، وأثناء تناولنا وجبة العشاء ، سألناه إذا كان يستفيد من المنحة الدراسية، فكان جوابه أنه يستفيد. فعرضنا عليه أن يرافقنا غداً لاستخلاصها، والذهاب لشراء بعض

الملابس والحاجيات، فاعتذر قائلا أنه سـيتدبر الأمر بنفسـه. وكذلك فعل، فقد اشـترى بذلة خاصـة برياضـة الملاكمة وقفازين ! وكل ما قاله عن الموضـوع هو أنه يعشـق الرياضـة، وقد حان وقت العودة لممارستها !

ومع مرور الوقت والأيام أنشأت الشكوك تحوم حول شخصيته الغامضة، وحول برنامجه اليومي الذي كان يقضـيه خارج الغرفة، ودون أن نراه في أرجاء الحرم الجامعي. كما استمرت تصرفاته الغريبة، وكثرة صمته.

وفي إحدى الأمسـيات عدت باكراً من السـاحة الجامعية، فدلفت إلى الغرفة لأن الدور كان علي لتنظيفها. وقبل أن أسـكب الماء وأشـرع في مهمتي ، كان لزاماً علي جمع أغراض سمعو ووضعها فوق الكرسي أو السرير حتى لا تتبلل. فبدأت بتنحيتها رويدا رويدا. فجأة انسل ملف أخضر كان مدسوسا بين طيات البطانية، وتبعثرت أوراقه أرضاً. فأخذت في جمعها وإرجاعها إليه . وكم صعقت لما وقع بصري على شهادة الباكالوريا التي كانت من ضمن محتوياته ! وهذا معناه أن صديقنا غير مسجل في الكلية، أو بالأحرى لم يعد كذلك.

تابعت جمع الأوراق، حتى إذا شـارفت على الانتهاء لمحت جواز سـفر باسـمه، وأوراق مكتوبة باللغة الانجليزية، تفيد بأن سـمعو قد وقع عليه الاختيار في القرعة السـنوية التي تنظمها الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي فقد حصـل على الإقامة في بلاد العم سـام. وبقلب تتنازعه ضـروب مختلفة من المشـاعر، تراوحت بين الفرح من أجله والحزن لما اقترفه، دسست الملف في خزانتي ، فأحكمت إغلاقها، وخرجت في طلب أصدقائي.

وأخيراً حصلنا على تفسير لبعض تصرفاته الغريبة، كحوزته لكتاب واحد خاص بتعلم اللغة الانجليزية، وغيابه المتكرر بسبب انشغاله بتجهيز الوثائق الضرورية.

وما إن أطلعت زملائي بأمر سمعو حتى ساد جو من الذهول والحيرة بيننا، فلم نكن نستحق أن يكتم الأمر عنا، وقد حاول شرح دوافعه ولكن ليته ما فعل ذلك.

وفي الصباح غادر للأبد دون تكليف نفسه عناء توديعنا !

فيضان النهر

أتذكر تلك الليلة وكأنها البارحة، فبعد ليلتين متتاليتين من الهطول بغزارة شـــديدة، توقفت الأمطار أخيراً، فبزغ القمر بدرا منيرا. توجســت أمي وســاورها شــك يميل إلى اليقين بأن فيضـان النهر وشيك، وأن وقت توضيب الأغراض قد حان. خطر استشعره باقي الجيران، فدبت الحركة في الحي، وتراقصـــت معها أنوار المصـــابيح اليدوية، لأن المنازل لم تكن مزودة حينها بشبكة الربط الكهربائي.

انهمك الجميع في جمع الأغراض، ووضــعها في مكان بعيد، حتى لا تتعرض للتلف بســبب اجتياح مياه النهر العاتية. في حين عكف "العم جلول" على تحليل الأصـــوات القادمة من النهر، باعتبارها معطيات يبني عليها تقديراته التي يحترمها الجميع، نظراً لخبرته بالنهر، والذي لم يعرف في حياته خليلاً أكثر منه. وبعد دقائق أنشأ يردد بارتياع :

- إنه قادم .. إنه قادم ...

وكذلك كان الأمر. لقد جاء الولد المطيع صــيفاً والعاق شــتاء فغمر معه أغلب المنازل، بل جميعها. وأتلف المحاصـــيل الزراعية، وجرف بكل قوته أشـــجار الزيتون والتين وبعض الخراف الهزيلة ...

وفي ســـورة الهلع ارتقى الجميع فوق ســـطوح البيوت، فجعلوا يرددون عبارات الصـــلاة والسلام على رسول الله، طالبين النجدة من الخالق تعالى.

حملقت بعيني إلى الســـماء، والفرحة تملأ قلبي الصـــغير، والأمل يحدوني لتطور الأحداث أكثر فأكثر. فهش قلبي لرؤية القمر وهو يصـر على مشـاهدة ما يجري. وكم سـرني ما كان يحدث حينها ! فالحق أنني كنت قد سمعت العديد من القصص حول فيضـان النهر، بيد أنني لم أكن شـاهداً على أي منها. فمن الناس من روى أن أحدهم احتمى ذات ليلة بشجرة وقضى

الليلة فوق أغصانها، ومنهم من حكى أن شاباً أنقذته أميرة الجن من الغرق وتزوجته بعدها ! حتى جاءت تلك الليلة، فاكتشفت فيها الوجه الآخر لما كان بالنسبة لنا نحن الأطفال مجرد مسبح صغير.

أثار انتباهي سماع أمي تجهش بالبكاء، وتتضرع إلى ربها بأن يوقف هذا المارد كما أوقف الأمطار عن الهطول، وإلا لكان الوضع أكثر تعقيداً مع استمرارها. لحظتها تحول عشقي وإعجابي بما يفعله النهر إلى كره شديد، وذلك لما سببه لأمي المسكينة من خوف وفزع، خاصة بغياب أبي المتواصل بحثاً عن اللقمة.

فكرت حينها أن أضرب النهر، أن أشتمه، أن أجافيه، ولا أسبح فيه بعد الذي اقترفه في حق أمي. شعرت بمرارة كبيرة بسبب ضعفي، وعجزي عن فعل أي شيء أمام الذي يحصل.

لأول مرة في حياتي اعتراني شعور مزدوج، تراوح بين الإعجاب والكره. الإعجاب بقوة النهر، وكرهه لذات العلة والسب.

وكهر صغير التصقت بأمي، وقد ملك الخوف كياني. فلا خوف مادامت أمي صامدة واقفة، وكل الخوف والرعب بعد نزول أول دمعة من عينيها الودودتين. حقيقة مقدسة عندي ليومنا هذا : **إلا بكاء أمي، فلا طاقة لي على مقاومته.**

وفي حالة كتلك التي كنا عليها، فقد انتظرنا المساعدة والإغاثة، وما هي إلا أن بدأت محاولات الاتصال بالأقرباء علهم يجدون إلينا سبيلا. إلاّ أن غضب النهر كان أكبر وأعظم، ومن هدير أمواجه واصطخابها سمعناه يزمجر بصوت حاد :

- أنا الأقوى هنا .. أنا الأصل. وأنتم أخذتم عني نومي لسنين طوال، فشيدتم بيوتكم على ضفافي، وأطربكم نقيق ضفادعي، وأعجبتكم كثرة أعشابي. فوجدتم في النقيق مؤنسا لكم في سهراتكم، وفي أعشابي بلسما وعلاجا لأمراضكم. أنا الأقوى هنا .. أنا الأصل ...

تناولت أمي غطاء فغطت به جسمي الهزيل. ووضعتني على الأريكة، فطلبت مني بنبرة رجاء أن أخلد إلى النوم إن أنا أردت بها وبنفسي خيراً. وما إن استلقيت هناك حتى أحسست ببعض الدفء، وسبحت في دوامة من الأفكار. فكرت في أصدقائي، ففكرت في ملعبنا الذي اعتنينا به مؤخراً، وبمسحوق الجير رسمنا معالمه كما نراها على شاشة التلفزيون. فكرت في الفرن الطيني الذي صنعته أختي الصغيرة، ففكرت في عرائسها. فكرت في دجاجاتنا، كيف لا وهن كل ثروتنا. أعملت كل خيالي لتصور ما آلت إليه الأوضاع وقلبي يعتصر كمدا وغما على الأشياء الصغيرة الكبيرة. فكرت بوالدي وغيابه القاهر المتكرر عنا، وراودني إحساس بأنه مستيقظ يستشعر الخطر المحذق بنا، ولا قوة للمسكين في معرفة تفاصيل ما يجري، أو فعل أي شيء لأسرته البعيدة الوحيدة. لتكون صورة أبي هي آخر ما داعب ذهني، قبل أن أستسلم نهائياً للنوم.

وفي الصباح، استيقظ الحي على وقع تراجع مستوى النهر، وما خلف وراءه من أتربة، وأشواك، ودجاج نافق ...

منظر دفع حشودا بشرية من الطفيليين للقدوم والاستفسار حول ما حدث. غير أننا قابلنا تلك الحشرية بالصمت كإجابة جماعية منا، وبدون اتفاق مسبق، على كتم الذي صار ووضعه فوق رفوف الذكريات.

أما القمر فظل هو الشاهد الوحيد على ما حدث ليلتها، ونحن بدورنا قدرنا ما فعله من أجلنا، بطرده السحب المحملة بالأمطار، وإلا لكانت الأمواج العاتية قد جرفتنا جميعاً .

دولاب الزمن

من الفقر المدقع إلى الثراء الفاحش، هكذا تحول مسار حياة المدني بعد حصول زوجته على إرثها من والدها المتوفي حديثاً. وبحكم طبيعة المجتمع الذكورية ، فقد استحوذ المدني على كامل ثروة زوجته.

اشترى المدني أرضاً، فشيد عليها ضيعته المترامية الأطراف، وجزأها إلى حظيرة لقطعان الماعز والأغنام والأبقار. وخصص مكانا شاسعا للاستثمار في مشروع لتربية الدواجن، و جزءاً آخر لوضع الآلات الفلاحية الضخمة والتجهيزات الخاصة بالسقي، وفي وسطها بنى منزلاً أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه تحفة زمانه.

تحولات كثيرة راقبتها أعين أهل القرية بأدق التفاصيل، وقيل عنها الكثير: كعثور المدني على كنز بجانب البئر، واتجاره في المخدرات...، غير أن كل الشائعات توقفت يوم أقام المدني وليمة كبيرة وجه الدعوة فيها لجميع أفراد قريته بدون استثناء، ليعلن لهم، وبحضور فقيه المسجد الذي أيد كلامه بحركات من رأسه، وإيماءات تفيد التأكيد التام لما جاء على لسانه، بأن الله بسط له الرزق من حيث لم يحتسب، وأن هذا المال مال زوجته مباركة، حصلت عليه بعد وفاة والدها، ومال زوجته يعني ماله طبعا.

أما أهل القرية فانهمكوا في الأكل، وتناول ما لذ وطاب من الحلويات والفواكه. في العلن شكروا النعمة، وفي السر لعنوا حظهم العاثر الذي جاد عليهم بزوجات فقيرات.

في الجهة المقابلة أخذت مباركة مكانها في صدر البهو، في إعلان مباشر منها أنها أصبحت سيدة القرية الأولى، وطلبت من الحاضرات قراءة الفاتحة على روح والدها والدعاء له. وقد كان لمباركة نصيبها الوارف من الحسن والجمال، فبالرغم من تقدمها نسبياً في السن، ورغم الفقر الذي عاشته مع المدني، إلا أنها ظلت تعتني بنفسها جيداً، وتحيا على أمل تحسن

أوضاعها بوفاة والدها الذي ظل منحازا طيلة حياته لأبنائه الذكور دون الإناث، كحال معظم رجال عصره، كما أنه ظل غاضباً عليها جراء ما اقترفته في حق كرامته !

ولما انفض الجمع وآوى الزوجان إلى فراشـــهما، التمعت في ذهن مباركة فكرة مزعجة، فأنشأت تحدث نفسها، والقلق يمزق نياط قلبها :

- هل يفعلها المدني ؟ أنا مباركة التي قدمت في سبيله الغالي والنفيس، لقد فضلت العيش معه فقيرة محتاجة، على العيش الرغيد في بيت والدي، والذي لم يســـامحني على فعلتي إلا في أيامه الأخيرة.

وبوجع تذكرت مباركة يوم وقفت في وجه أبيها، وتفضيلها المدني عليه. ذكرى قاسية تعود لأكثر من ثلاثين سـنة، حينها كان المدني يشـتغل سـائقا لإحدى الشـاحنات التابعة لشـركة والدها. ومع انشغاله في المكتب ذات يوم، طلب والد مباركة من سائقه المدني إيصالها بدلاً عنه إلى البيت، فكان ذلك أول تعارف ولقاء بينهما. لتتوالى لقاءاتهما الســـرية في أقبية الشركة. إلى أن اقتفى أثرهما أحد العمال، وأخبر سيده بذلك. فلم يتمالك والدها نفسه، وطلب من العامل مرافقته إلى المكان الذي رآهما فيه. وهناك وجدهما فعلاً، فبســـط يده لمباركة وطالبها بالمجيء، غير أنها التصـــقت بالمدني. ولما كان منها ذلك، قال لهما والدها بنبرة حاسمة :

- اخرجا من هنا حالا ! أقسم أنني إذا رأيتك في هذه المدينة مرة أخرى أيها النذل، ســـيكون حســـابي معك عســـيراً. وأنت اخترت، فلك ما اخترت يا مباركة. هيا.. اخرجا ! اخرجا !

...

وبعد ذهاب قاسم، ابن المدني ومباركة الوحيد، لمتابعة دراسته العليا في الخارج، انكب المدني على بناء مصنع لتصبير الزيتون وتصديره، ومعه بات يغيب عن البيت ليوم، ليومين، وأحياناً لأسبوع.

وفي إحدى الليالي، جلس المدني وبجانبه زوجته مباركة يتسامران تحت نور القمر، فأخبرها أن فقيه مسجد القرية ألح عليه أن يحج إلى بيت الله في موسم الحج القادم، وأن لا شيء ينقصه الآن سوى الحج، فلقب الحاج المدني يليق به أكثر. استحسنت مباركة الفكرة، وشجعته، مؤكدة على فضل زيارة ذلك المكان المقدس والتبرك به. وقد قالت ذلك دون تقدير لعواقب موسم الحج هذا عليها !

تصرمت الأيام سريعاً، وها هو المدني يضع آخر اللمسات قبل التوجه إلى المطار وقصد الديار المقدسة. وقد سبق هذا وليمة ترأسها فقيه القرية ونفر من أصدقائه الذين عكفوا ليلتها على تبسيط فرائض وسنن الحج للمدني، قصد مساعدته على تأدية مناسكه بيسر.

شغل السائق محرك السيارة، فلوح المدني لمن جاء لتوديعه. ولوح لمباركة، وكأنه يطوي صفحتها نهائياً، ويدق آخر مسمار في نعشها.

قصد المدني منزلاً كان قد اشتراه في إحدى المدن الساحلية دون علم من أحد، وهناك كانت تنتظره حسناء زوجته الجديدة، وكان قد تعرف عليها في أحد الاجتماعات !

وما إن أدخل السائق الأمتعة إلى المنزل، حتى صاح به المدني قائلاً :

- تعلم جيداً ما ستقوله أثناء عودتك؟
- أجل سيدي أعلم .

وبعد انقضاء مدة الحج، ومع عودة أول طائرة إلى أرض الوطن، قفل الحاج المدني راجعا إلى القرية. وأي استقبال حظي به ! وأي ترحيب ! وفي مسجد القرية تلك الليلة أقيمت

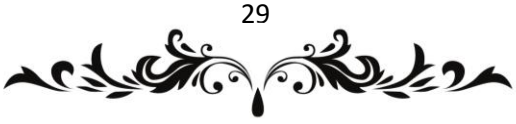

وليمة، ومجلس ذكر على شرف الحاج، فشرع الفقيه في مراجعة مناسك الحج مع العائد من الديار المقدسة، وعند كل سؤال كان الحاج المدني يجيب بثقة وتفاخر :

- نعم فعلنا ذلك .. نعم لقد مررنا من هناك !

غير أن حيلته لم تنطل على الفقيه الذي كشـــف الأمر بســـهولة تامة، فقد ســـأله عن بعض المناسك البعيدة تماماً عن الحج، وأكد المدني بالمقابل بأنه قام بتأديتها بكل خشوع وتضرع ! ومع ذلك ففد لزم الفقيه الصمت، إذ لا مصلحة له في كشف الأمر للناس، لأن ما يجنيه من بيت الحاج المدني يفوق بعشرات المرات ما كان يجود به أهل القرية عليه.

وذات صباح استيقظت الضيعة ومن فيها على وقع مجيء زائر غريب، وقد كانت سيدة في زهرة شبابها. توجهت بسيارتها الفارهة حتى باب المنزل، فصاحت بالخدم والابتسامة تعلو محياها :

- مرحبا، هل دودو هنا؟

فأجابتها إحدى الخادمات باستنكار :

- دودو! يبدو أنك أخطأت العنوان يا سيدتي.
- أ ليس هذا بيت زوجي الحاج المدني ؟

سمعت مباركة ما قالته الشابة الواقفة عند باب منزلها، فانهارت أرضاً. وعلى وقع الصدمة خرج الحاج المدني، فأمسك حسناء من يدها، وجعل يكلمها بصوت خفيض :

- ماذا جئت تفعلين هنا ؟

فردت حسناء ، وهي تحاول انتزاع قبضته من يدها :

- جئت في طلب زوجي. فهل هذا عيب؟

وبنبرة تشي بارتباكه قال الحاج المدني :

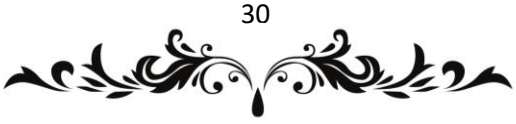

- لا .. ليس عيباً .. لكننا اتفقنا على إخفاء الأمر إلى أن يحين الوقت المناسب.

فقالت حسناء، وقد التمعت عيناها :

- وأنا أقول أن هذا هو الوقت المناسب.
- ادخلي ! ادخلي الآن، يكفي هذا !

وما إن دلفت حسناء إلى البيت، حتى تخلص الحاج المدني من هول الصدمة، واجتاحته بالمقابل حيرة عارمة، فأطرق يفكر في حل لمأزقه، وما الذي سيقوله لمباركة بعد استيقاظها، فأمرها يهمه، أو بالأحرى سمعته وسط القبيلة تهمه. التمعت في ذهنه فكرة سديدة، فأرسل في طلب الفقيه. وإثر قدومه بسط له الحاج المدني الأمر، ووعده بهدية كبيرة إن هو ساعده للخروج من هذه الورطة.

ولما استفاقت مباركة أبصرت الفقيه جالساً بمعية خادمتها قبالتها، وبصوت ينم عن الوقار قال الفقيه :

- الحمد لله .. الحمد لله على سلامتك سيدة مباركة .. الحمد لله ..
- ...

ومن فوره انتقل يحدثها عن موضوع زواج الحاج المدني قائلاً :

- أرجو أن تتقبلي الأمر بكل هدوء، فالحاج المدني لم يفعل شيئاً يغضب الله.

كف لحظة ثم أردف :

- السيدة زوجته على سنة الله ورسوله، وقد راجعت عقد زواجهما قبل قليل .
- ...
- أرجوك سيدة مباركة لا تتركي للشيطان مجالاً للتشويش على أفكارك، لك حقوق على الحاج المدني وهو ملتزم بها جميعها.

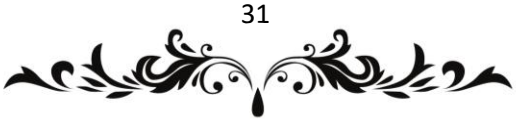

فهمت مباركة أن تقول للفقيه بأنها قد فرطت في حقها لما تنازلت عن ثروتها، بيد أنها اكتفت بالصمت.

- وإنني أقول لك هذا سيدة مباركة، وأنا أعلم بأنك على قدر من النضج لتفهم الأمر وتقبله. أستودعك الله .

- ...

قال الفقيه كلماته الأخيرة، فانتصب واقفاً، وغادر الغرفة برفقة الخادمة. وعند بابها ألفى الحاج المدني في انتظاره، فبادره بالقول :

- ماذا قالت لك ؟ ماذا؟
- لم تقل شيئاً ، إلا أنها ستتقبل الأمر، وستألفه مع مرور الوقت، أعدك بذلك.

فمد الحاج المدني يده، وسلم على الفقيه بحرارة، وقال :

- شكراً لك.. شكراً .. ستصلك الهدية قريباً.

...

امرأة أخرى تشارك مباركة البيت وزوجها، وحركات صبيانية، وضحكات مجلجلة في آخر الليل، وقرع على الدف، ومواويل عذبة ما فتئت تنداح من غرفة الحاج المدني الجديدة. إنه واقع مباركة الجديد، واقع غرقت معه في مستنقع الأسف والندم على ما اقترفته في حق نفسها. ووسط هذا الزحام الخانق كانت مباركة قد عقدت العزم على الهجرة واللحاق بابنها، أملها الوحيد. غير أن خيبتها تضاعفت لما عاد قاسم مطرودا بسبب سوء سلوكه وتدني نتائجه، فكل ما أجاده قاسم هناك كان هو تبذير الأموال التي تصله من والده في العربدة

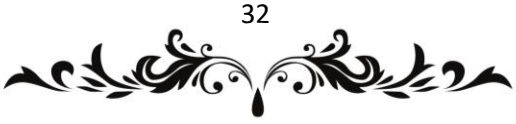

والسـكر، تاركاً أمر الدراسـة خلف ظهره. وعند عودته ظل يقضـي نهاره كاملاً في النوم، وليله في مجالسة بعض أقرانه من أبناء القرية.

وبمقدم حسـناء أخذت الاجتماعات تعقد في المنزل، وقد كانت لها في أغلب الأحيان الكلمة الأخيرة بخصوص عديد المشاريع التي كانت تطرح للنقاش، فهي محاسبة سابقة، وخريجة كلية الحقوق والاقتصـاد. ونظراً للأرباح التي صـار يحققها الحاج المدني، فقد أصـبح يعتمد عليها كثيراً، ويخول لها حرية التصرف بدلاً عنه.

نشـاط حسناء وتواجدها في كل مكان وزمان، قابله انطواء وانعزال شبه تام لمباركة، والتي أمست تقضـي معظم وقتها في غرفتها متوارية عن الأنظار، وكانت لا تسمح لأحد بزيارتها إلا خادمتها ، وفي فترات متباعدة ابنها قاسـم، بينما ظل الحاج المدني لا يقوى على النظر والتطلع في وجهها.

وفي إحدى الأمسـيات، وبعد إلحاح من خادمتها التي أكدت لها بأن الحاج المدني غير موجود، تركت مباركة غرفتها، فخرجت إلى الحديقة لاسـتنشـاق القليل من الهواء. وعند رجوعها رأت أمراً منكرا **!** لقد رأت حسناء، وهي تغادر غرفة ابنها قاسم بلباس النوم **!**

وفي الغد لم يجد أحد أثراً لمباركة ..

ومع الاختفاء المفاجئ لمباركة أحست حسناء بالخطر، فقررت تنحية الولد قاسم من طريقها تجنباً للأسوأ. وبحركة بسيطة منها، تجسدت في إخبار زوجها أن ابنه يبادلها نظرات غريبة وأنها أضحت تخشاه في غيابه، وجد قاسم نفسه مطرودا من البيت ومن كل أملاك والده.

وبعدها أصـبح الطريق معبدا أمام حسـناء للانقضـاض على الحاج المدني وطرحه أرضـاً، فتحينت الفرص، واغتنمت ثقته العمياء بها وأردته أرضاً.

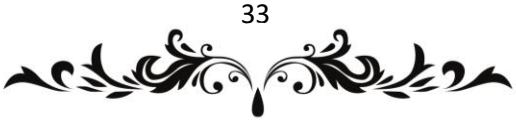

فأما قاســم فانضــم إلى لائحة مجانين القرية، إذ أن جهازه النفســي لم يتحمل الواقع الجديد، فاستسلم صاغرا للجنون. وأما والده فظل يقصد أحد أقربائه، بعدما تنكر له الجميع بمن فيهم الفقيه، والذي قال في أحد مجالسه بأن مال الحرام يذهب في الحرام !

مذكرات فتاة عانس

فـي ذكـرى ميلادهـا لهـذه السـنة توجهـت بشـرى صـوب خزانتهـا، فأخرجـت صـندوقا خشـبيا صـغيراً، حيـث كانـت تضـع أشـياءها النفيسـة وذكرياتهـا المعتقـة، فتناولـت بـين يديها كتابا متوسط الحجم وأخذت تقرأ :

10/06/1990

كـل مـا ميـز هـذه السـنة هـو القـرار الـذي اتخذتـه بخصـوص تـدوين مـذكراتي، وقـد ارتأيت أن يكون ذلك بشكل سنوي يتزامن مع ذكرى عيد ميلادي.

10/06/1991

لأول مـرة أشـعر بثقـل يرهـق كـاهلي، فكـوني أنثـى فـي السـابعة والعشـرين مـن عمرهـا، عازبـة، وحاصـلة علـى الإجـازة فـي الدراسـات الأساسـية، وعاطلـة عـن العمـل، أمـر بدأ يضايقني.

10/06/ 1992

ومـا الـذي كنـت تفعلينـه فـي الجامعـة؟ أليسـت هـذه الأخيـرة الهـدف منهـا الحصـول علـى زوج ؟ كانت هذه كلمات إحدى عماتي.

10/06/1993

بزوغ تبعه أفول.

10/06/1994

أسـعدني جـداً حصـولي علـى فرصـة العمـل تلـك، قبـل أن يفسـد ابـن صـاحب الشـركة الأمر برمته لما تجرأ ومد يده صوب شعري.

10/061995

العودة إلى جو البيت الخانق، والتعلق بالأمل الزائف من جديد.

10/06/1996

عداد العمر فاق الثلاثين بسنتين ومعه زادت نداءات الجسد.

10/06/1997

أفكر فعلياً في الإنصـــات والخضـــوع لرغبات جســـدي، بيد أن الســـؤال التالي يؤرقني: هل سأقوى على محاسبة الضمير؟

10/06/1998

في البداية لاحت ملامح قصـــة حب في الأفق، وفي النهاية اتضـــح أنها كانت نزوة عابرة لا أكثر .

10/06/1999

حصـــلت أخيراً على وظيفة عمومية، وأول تهنئة بلغتني كانت كالآتي : الآن فرصـــتك للحصول على زوج قد تضاعفت !

10/06/2000

مركزيــة الحصــول علــى زوج تــدور فــي فلكهــا جميــع المواضــيع الأخــرى، فــلا أحــد يهـتم بمـا أقـوم بـه مـن واجبـات اتجـاه نفسـي ووطنـي، لا أحـد يهـتم إطلاقـا. الكـل يسـأل عـن الـزوج، وبعضـهم اقتـرح علـي زيـارة إحـدى العرافـات لفـك السـحر، وعـدم التوفيـق الذي يلازمني بهذا الشأن !

10/06/2001

أصبحت أريد زوجا فقط لسد أفواههم، ومقاومة العنف الممارس ضدي، فالكل يرميني بنظرات فيها القليل من الأسئلة والكثير من الاتهام.

10/06/2002

وكم كانت رغبتي هذه السنة في السفر وتغيير الأجواء شديدة ! غير أن فتاة تشغل محرك سيارتها، وتنطلق لتجوب أنحاء البلاد طولا وعرضا أمر غير مقبول، فأنا بحاجة إلى زوج يمنحني المشروعية لأفعالي !

10/06/2003

حتى ياسمين تستحق ما هي عليه الآن ، فلو كان في قلبها ذرة خير لكان الله قد منحها زوجا يسترها ! هكذا قالت آخر صديقاتي، قبل أن أجد نفسي مجبرة على إنهاء علاقتي بها هي الأخرى، فالظاهر أنها تناست أنني غير متزوجة ! ولكن هل صحيح أن الله تعالى يعاقب بعدم الزواج ؟

10/06/2004

فكرت مليا في اقتناء مسكني الخاص بقرض بنكي، وبعدها أتبنى طفلاً أو طفلة ، أحسن به(ها) وأتخذ(ها) سنداً. ولكن الأمر ليس يسيراً كما أتخيله. سأنبذ من إخوتي، أولاً وقبل الجميع ، وسيعتقدون يقيناً بأنه ابني، وأنني أحاول فقط إخفاءه بفكرة التبني.

10/06/2005

مع تقدمي في السن، ونظراً لطبيعة بيئتي، وأحكامها، واعتباراتها الخاصة، فقد بدأت أتقبل أموراً ما كنت لأتنازل عنها يوماً. كأن يكون الزوج المنتظر مثلاً قد

سبق لـه أن كـان متزوجـا مـن قبـل، أو أن يكـون شـبه عاطـل عـن العمـل، أو فقـد زوجتـه وله أبناء منها ...

أود أن أملأ الفراغ وكفى .

10/06/2006

لقـد صـرت أرتـدي ثـوب الضـحية السـهلة فـي عيـون واو الجماعـة، والمتهمـة فـي عيـون نون النسوة ! أستطيع رؤية صورتي بجلاء في أعينهم.

10/06/2007

لا أقـوى علـى تحمـل انقطـاع العـادة الشـهرية عنـي للأبـد وتوقـف مبيضـي عـن إنتـاج البويضـات. أسـتطيع نسـبياً تحمـل بقـائي بـدون زواج، لكننـي لا أظـن ذلـك فـي حـال مـا شاءت الأقدار وحرمتني من الأبناء للأبد.

ومع كل دورة حيضية يتجدد الأمل، والأمل في خالقي كبير.

10/06/2008

أي ذنـب عظـيم هـذا الـذي اقترفتـه حتـى أنـال مـا نلتـه مـن إخـوتي ، وعـائلتي ، وأصدقائي، ومجتمعي بشكل عام ؟

أنا بشر مثلكم يا جماعة.. أنا بشر مثلكم ...

10/06/2009

وأخيراً تزوجت .. أخيراً تزوجت ...

10/06/2010

أنا حامل.

10/06/2011

رزقـت بطفلـة جميلـة تشـبه والـدها الطيـب الحنـون ، غيـر أننـي أخشـى عليهـا أن تكابـد ما عانته والدتها .

بامبينو :

المنظر على ظهر السفينة جذاب، فرؤيتها وهي تمخر عباب البحر مخلفة وراءها خطا مستقيما من الأمواج شد انتباه نزار. وفي مكانه عند حوافها أنشأ الشاب المراهق يعاين بقلب منشرح بعض المسافرين وهم يسبحون، ويستمتعون بأشعة الشمس، ويتناولون المشروبات الباردة والمثلجات، و يدخنون السجائر. ولما كان نزار يستمتع بما تبصره عيناه لأول مرة في حياته، فاجأه صوت أخيه أسامة، فقطع عليه شروده اللذيذ :

- ما الذي تفعله أنت هنا على ظهر السفينة ؟ ألم نتفق على بقائك في غرفتك وعدم الخروج منها لأي سبب !

فرد نزار وقد تلجلج لسانه، واحمرت وجنتاه من شدة الارتباك :

- صعدت فقط للقيام بجولة صغيرة، فالجلوس في الغرفة مضجر يا أخي.

وبتهكم قال أسامة :

- يا حبيبي أنت ! يبدو أنني أخطأت عندما قررت إحضارك معي.

قال أسامة كلماته، فدنا من أخيه وهمس في أذنه :

- اسمع جيداً، أنت هنا مسافر بوثائق مزورة. ولقد أنفقت أموالاً طائلة حتى تسنى لك التواجد

هنا. وإن نجاح ما نقوم به مرتبط بمدى التزامك بما اتفقنا عليه. فهيا عد إلى غرفتك ولا تغادرها إطلاقاً !

- حاضر .. أمرك أخي.. أمرك.

فعاد نزار إلى غرفته، ومكث فيها حتى رست السفينة في أحد موانئ إيطاليا.

وفور بلوغهما البيت أخذ الأخوان قسطا من الراحة. وفي المساء تناوب على زيارتهم عدد من أصدقاء أسامة، وكانوا جميعاً إيطاليين. وأثناء حواراتهم مع أخيه لم يميز نزار من قولهم إلا كلمة **"بامبينو"**، والتي نعته بها كل من أتى في ذلك المساء، وقد علم معناها فيما بعد. كما أعجب نزار أيما إعجاب بالرسوم التي كانت منقوشة على أجساد كل الزائرين.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة قدمت سيدة، حتى إذا ولجت البيت ارتمت في أحضان أسامة تعانقه، وتسأله عن أخباره وأحواله. وقد فهم نزار من حركاتها، وكلماتها، ونبراتها، ونظراتها، أنها مشتاقة إليه. وفي دواخله تساءل عن علاقتها بأخيه، قبل أن يقدمها له أسامة قائلاً :

- إليك نزار، هذه زوجتي كلوديا.

فرد نزار، وقد اتسعت حدقتا عينيه :

- زوجتك !

فجز أسامة على أسنانه، وقال :

- هي كذلك.. قبلها، وابتسم في وجهها أيها الأحمق !

فرسم نزار على وجنتها قبلة، وابتسم في وجهها، ثم قصد غرفته. وبعد دقائق معدودات لحقه أسامة، فأخذ يضعه في الصورة، و بهدوء قال له :

- سأبدأ أولاً بكلوديا، إنها زوجتي كما أطلعتك قبل قليل، وبفضلها تمكنت من

الحصول على أوراق الإقامة بشكل دائم، ودائم لا تعني أننا سنبقى هنا طوال حياتنا يا أخي.

صمت لحظة ثم استتلى :

- نحن هنا بهدف العمل وجمع أكبر قدر من المال، وبعدها نعود إلى أرض الوطن.

أنا أتزوج ســعاد...، وأنت أعطيك نصــيبك من المال، واســتثمره في مشــروعك الخاص. ولأجل هذا أحضرتك، لقد جلبتك لمساعدتي، فسنك الصغير مبعد للشبهات.

- أي شبهات يا أخي ؟
- لا شأن لك في هذا ! أنت فقط افعل ما أقوله لك، واصمت !

وذات صـباح أخبر أسـامة أخاه نزار بأنهما سـيقومان بجولة خفيفة بالسـيارة. وكم هش قلب نزار للخبر ! فقد كان خروجه الأول من البيت منذ مجيئه إلى إيطاليا. ركب الاثنان ســيارة صـغيرة الحجم، وانطلقا يجوبان شـوارع المدينة الفسـيحة. وبنهم طفق نزار يشـاهد المقاهي والمطاعم وهي تستقبل الزبناء، والتماثيل التي تزين الساحات. وأمام باب حديقة غناء ركن أســامة الســيارة، فتوجه بالكلام إلى أخيه، وهو يســحب من مقعد الســيارة الخلفي محفظة صغيرة.

- خذ محفظة الظهر هذه، وترجل من السيارة، وامنحها للرجل الذي يجلس هناك

على الكرسي بجانب مدخل الحديقة. هل رأيته؟

- نعم، رأيته ..
- إياك أن تنبس بكلمة !
- ولا حرف .

انزلق نزار من السيارة حاملاً المحفظة على ظهره، فتوجه شطر الرجل المنشود، حتى إذا دنا منه تذكره وعرفه، فقد كان أحد ضيوف الليلة الأولى :

- بامبينو! هتف به الرجل، وهو يفحصه بنظرة ودودة.

فأجابه نزار مبتسماً :

- بامبينو ..

وسلمه الحقيبة، وعاد أدراجه إلى السيارة.

كانت تلك أول عملية تسـليم مخدرات قام بها بامبينو، وذكراها بقيت في ذهنه طوال حياته. وقد تذكرها كثيراً إبان فترة سـجنه الأولى، لما قبض عليه يحمل المخدرات، فزج به في إصلاحية للقاصرين نظراً لسنه الذي لم يتجاوز حينها الثامنة عشر، وتم تحويله بعد ذلك إلى السجن لإتمام عقوبته.

وبعد انقضـاء فترة عقوبته، وعند باب السـجن كان أسـامة بانتظار بامبينو، بمعية زوجته كلوديا وطفلهما الصـغير جوزيف أو **"جو"**. وبأسـارير باسـمة اسـتقبلهم بامبينو، وسـر غاية السـرور برؤيتهم، وخاصـة جو الصـغير. أما أسـامة وكلوديا فعجبا من هيئة بامبينو التي تغيرت كلياً، فقد اكتسب شكل الملاكم بعضلات قوية مفتولة، ولا ريب أنه استغل معظم وقته هناك في ممارسـة التمارين الرياضـية. وبتسـريحة شـعر على شـكل ذيل الحصـان، ووشـم منقوش على ذراعه اليسرى بحروف كبيرة : BAMBINO صار نزار حقاً شخصاً آخر !

وفي صـبيحة اليوم الموالي لخروجه من السـجن، اسـتغل بامبينو غياب كلوديا و جو، وذهابهما لجلب بعض الأغراض، فطلب من أخيه أسـامة الجلوس إلى الطاولة والحديث، إلاّ أن هذه المرة كان هو من أخذ المبادرة وتكلم :

- سعيد بعودتي ورؤيتكم من جديد.
- ونحن كذلك يا أخي.
- أما بخصوص العمل، فهذه المرة أريد نصيبي بالتساوي.

وران صمت لم يلبث أن بدده أسامة بالقول :

- آسف، لقد توقفت عن العمل منذ علمي بحمل كلوديا. وقد بدأت الاشتغال معها في المصنع

الذي تعمل فيه، وتواريت عن الأنظار كلياً .

فرد بامبينو، وهو يرمقه بعينين متأملتين :

- يسعدني سماع هذا منك.

لفظ جملته الأخيرة، فسحب الكرسي للخلف، وانتصب واقفاً، و بخطى ثابتة سعى ناحية باب البيت، حتى إذا وضع المزلاج بين قبضته، صاح به أسامة بصوت تعانقه رنة الشكر والامتنان :

- ممتن لإصرارك على

إبعادي من القضية يوم قبض عليك. سيظل هذا دينا في رقبتي ما حييت .

فقال بامبينو بصوت مشوب بلهجة عتاب :

- وسعاد؟ ماذا فعلت بشأنها؟
- لقد اتصلت بوالدتنا، وأعلنت لها فسخ خطوبتنا.
- خيراً فعلت. أبلغ تحياتي وقبلاتي لكلوديا وجو.
- خذ رقم هاتفي، واطلبني إذا واجهتك صعوبة بخصوص اللغة، أو أي أمر آخر.
- لقد تعلمت الكثير في السجن، فهو كذلك مدرسة.

وفيما هو يغادر البيت ويقصد حانة قريبة، تلقى بامبينو نفحات فصل الربيع، فندت عنه ابتسامة رائقة. وفي أحد أركان الحانة الأربع جلس، وطلب زجاجة بيرة. فأحضرت النادلة زجاجتين، وسحبت كرسيا، وجلست.

- سيغضب صاحب الحانة إن هو رآك. قال بامبينو بفتور.
- لن يفعل، فعدد الزبائن قليل كما ترى ، والشغل نزر هذه الأيام بسبب العراك

الذي افتعله أنجلو مؤخراً.

صمتت النادلة، ثم أردفت والابتسامة تعلو محياها :

- أنت هو بامبينو إذن؟
- وما أدراك بهذا؟
- الوشم ..
- أجل .. أنا هو.
- سمعتك سبقتك، فعضك لذلك المجري في الإصلاحية، وإدخاله المستشفى لإنقاذ ما

تبقى من أذنه، كان كفيلا بجعلهم يتحدثون عنك هنا، وفي أكثر من مناسبة.

- لا يهمني كل هذا. لكن يبدو أنك تعرفين عني أكثر مما أعرفه عنك يا...!
- ماريا ..
- متى تنتهي مداومتك يا ماريا؟
- بعد ساعة من الآن.
- حسنا، أنا هنا بانتظارك.

ولما أنهت النادلة واجباتها، دفعت ثمن الزجاجات من أجرتها كعربون تعارف، فتوجهت بمعية بامبينو إلى شقتها. ومنها حصل بامبينو ليلتها على معلومات بشأن أنجلو، الزعيم الجديد للحي، وقد حذرته من التعامل مع ذلك الثعلب الماكر، الذي يشي بمساعديه ومن يعملون لصالحه عندما يقرر إنهاء مهامهم. غير أن بامبينو كان في سره مقتنعا بأن إيطاليا بالنسبة له تعني الحصول على أكبر قدر من المال والعودة إلى الوطن في أقرب فرصة سانحة.

صارت ماريا عشيقة بامبينو، وانضم هو لرجال أنجلو. بيد أن الانضمام وحده لم يكن هدفه الأول، بل كان ينشد التميز وحجز مكان مهم في هرمية العصابة. ولبلوغ غايته فقد أخلص للزعيم، وتعامل بحرفية عالية طبعتها صلابة المواقف وقلة الكلمات.

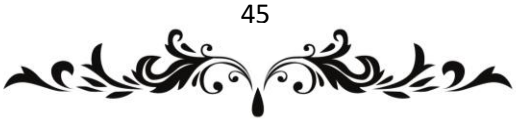

وعند عودته ذات مساء إلى شقة عشيقته ماريا، وجدها تتعاطى مسحوق الكوكايين، فشجعته على التجربة قائلة :

- غريب أمرك يا بامبينو، تبيع الماء وتموت عطشا ! على الأقل جربه مرة واحدة !

وبدون تردد هذه المرة أخذ ما بيدها، فاستنشق الجرعة الأولى، وأضاف الثانية. وماهي إلا أن تمدد على الأريكة، وأحس بأرنبة أنفه تشتعل، واضطرب معدل تنفسه، واتسعت حدقتا عينيه، وشعر بالغثيان.

مستلقيا في مكانه، فاقداً القدرة على الحركة، أخذ بامبينو يهلوس، ويسمع صوت أمه تناديه من بعيد :

- نزار.. نزار..

وكم اشتاق لاسمه القديم ! وكم اشتاق للشخص الذي كانه يوماً ما ! لقد أمسى غريباً في هذا الجسد، وهذا الاسم : بامبينو !

وفي الوقت الذي كانت عشيقته تشعر بالنشوة، والسعادة، والرغبة في أخذ المزيد من الجرعات. توقف دماغه عن تزويده بتلك الأصوات والمشاعر، فاجتاحته نوبة من الأرق. وأما الفرق بين إحساسيهما المتضاربين، فكان التجربة كما أوضحت له ماريا ذلك فيما بعد، فللتجربة الأولى صعوبتها وللتجارب اللاحقة حلاوتها !

لقد دشن بامبينو رحلة إدمانه على تلك الشاكلة، فتنوعت من بعد ذلك، وتفرعت إلى أمور أكبر وأغرب. وقد استمر في الكسب الوفير، وفي التبذير المتزايد حتى يوم قبض عليه وبحوزته كمية مهمة من المخدرات. ومع سوابقه العدلية ، فقد حكم عليه هذه المرة بست سنوات نافذة، وترحيله إلى وطنه عند خروجه من السجن.

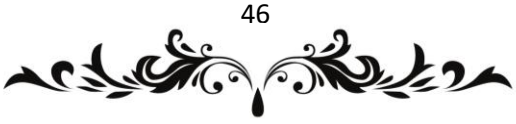

وهكذا ضاعت سنوات أخرى من حياة بامبينو سدى، غير أنه قضى معظم فترة حبسه الثانية في العلاج من إدمانه، والتخلص من بقايا السم الأبيض في دمه. وما إن ترك أسوار السجن وأبوابه خلف ظهره حتى وجد نفسه على متن الطائرة الأولى التي كانت عائدة إلى الوطن .

وهناك في مكانه عالياً وسط السحب، فكر مليا بما يتوجب عليه فعله فور أن تطأ قدماه الأرض. فاهتدى أولاً إلى ضرورة التعديل من شكله، والتخلص من شعره، وإخفاء الوشم.

وعند وصوله إلى البيت، تفاجأ بالحفاوة التي استقبلته بها والدته، ووالده، وأخواته، وبعض جيرانهم القدامى. فأحس بالعار والمهانة، وهو الذي لم يرسل لهم أيام كان يجني أموالا طائلة ولا درهماً واحداً، ولم يكن يهاتفهم إلا لماما. لكنه شكر الله في سره على عدم إرساله تلك النقود الملعونة.

صحيح أن نزار سيبدأ من جديد، إلاّ أن الوصول المتأخر يبقى أفضل بكثير من عدم الوصول. وعليه، وبعد مشاورات عديدة مع أفراد أسرته ، قرر أن يفتح دكان أبيه من جديد، ويتفرغ للاعتناء بوالديه المسنين، وأخواته، ولتختار له الحياة بعدها أي مسلك تريده.

البوح الأخير:

- أي جزء تريدني أن أبدأ به يا بني؟
- منذ بداية إدراكك للوجود يا جدي.
- إن الأمر لشاق علي يا بني، وكما ترى فأنا رجل مسن، قد تجاوزت القرن بعقدين تقريباً.
- وهنا الملحمية يا جدي، فأنت من المعمرين القلائل. أطال الله في عمرك، ومتعك بالصحة والعافية.
- على كل حال سأحاول.

عدل جدي من مجلسه، فتنهد بعمق وقال :

- إنني أرى الطفولة بعيدة كالسراب وسط البيداء يا بني، وما أذكره بشأنها قليل جداً، يتعلق بالليلة التي قتل فيها والدي رحمه الله. وقد كان قائد القبيلة، ومنصب كهذا في ذلك الزمان كان كفيلا بصنع الأعداء لصاحبه. وبينما كنا نحن الأربعة، أنا وأختي وأمي وأبي، نتناول وجبة العشاء، اقتحم علينا المنزل رجال كانوا يحملون البنادق، وبدون مقدمات أطلقوا النار على والدي، فأردوه قتيلاً.

كف جدي برهة، فأضاف وطيف الذكريات يحوم فوق رأسه :

- لقد رأيت والدي يسبح في بركة من الدم، ويحاول جاهداً النهوض لاحتضاننا، وحماية أمي من أولئك الأشرار. وكم جعلت منه تلك اللحظة بطلا، ورمزا للأبوة، والزوج الشجاع المدافع عن أسرته حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ! لكن الجبناء كانوا قد جاؤوا من أجله فقط، فاكتفوا بسلبه حياته، وفروا كالجرذان.

وبمقتله انقلبت حياتنا رأســاً على عقب، فانتقلنا من الغنى والخير الوفير، إلى الفقر والحاجة الشــديدة. وبعدها بســنوات قليلة تزوجت أختي، فانســحبت والدتي إلى متواها الأخير مكوية بنار الغدر، وذهبت أنا للاشــتغال عند إحدى العائلات من معارف والدي الســابقين. وهناك تعلمت كل ما يتعلق بأمور الفلاحة من حرث، وزرع، وحصــاد...، وخلال تلك الفترة أيضــاً تعرفت على طيبة الذكرى جدتك رحمها الله، وقد كانت تشــتغل وأســرتها عند نفس العائلة. طلبتها من والدها، فقبل وتزوجنا على شــرط أن أصــطحب زوجتي، وأبحث لنا عن بيت يأوينا، وشــغل يكفي حاجاتنا البســيطة، والتي لم تتجاوز في أغلب الأحيان خبزا وزيتا وزيتون.

وهكذا اشتغلت أجيرا أقوم على زراعة الحقول، مقابل حصتي من المحصول، وتوفير السكن لنا. فبدأت وجدتك في رحلة الكســب، والعيش الحلال. وكم ســاعدتني المســكينة ! فقد كانت تســتيقظ وبزوغ الفجر، فتفرغ من شــؤون البيت، وتلحق بي إلى الحقل، حيث كانت تقضــي النهار بأكمله معي.

وتوالت الأيام فرزقنا بطفلنا الأول، والذي لم يعش طويلا بســبب مرض غريب انتشــر في تلك الأيام، ففتك بالعديد من الأطفال. غير أننا تقبلنا الأمر، وشــكرنا الله على ما أعطى، فشــكرناه على ما أخذ، وكان لنا في الخمســة أبناء الذين أتوا بعده العزاء الكبير، وكانت والدتك آخر العنقود، وقد تركتها جدتك وهي في سن السابعة تقريباً.

- وكيف ماتت المسكينة ؟ قلت بقلب كسير.
- ألم تخبرك والدتك بهذا ؟
- أخبرتني بأنها ماتت كما يموت الجميع.
- أجل ماتت كما يموت الجميع، إلا أن وفاتها كانت حدثاً مأساويا بحق.

صمت لحظتها جدي، فأضاف والألم يملأ كيانه :

- لقد زلت قدمها وهي تحاول جلب الماء من البئر. وما إن سمعت صرختها حتى

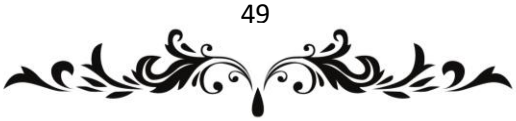

خرجت إليها مســـرعاً، وبمســـاعدة بعض الجيران حاولنا إنقاذها، إلا أنها كانت قد لفظت أنفاسـها الأخيرة، فالمسكينة لم تمت بسـبب الغرق، بل ماتت من شـدة ارتطام رأسـها بجدار البئر الصخري. وكم آلمني موتها يا بني !

أجهش جدي بالبكاء، وتجمدت أنا في مكاني، وبقيت أتطلع إليه بقلب واجف وفؤاد كســـير. مرت اللحظات ثقيلة مليئة بالحزن، وما هي إلا أن استجمع جدي قواه، فاستتلى يتخلص من ثقل الذكرى، وبصوت خفيض قال :

- رحلت العزيزة، وفاتها لحسن الحظ أن تشهد على **"عام الجوع"**، عام عانينا فيه،

نحن المغاربة، من القحط والجفاف والمجاعة بســبب إجراءات فرضــتها ســلطات الحماية الفرنسية وقتذاك، بخصوص المواد الغذائية الأساسية، وطرق شرائها، وصيغ توزيعها. وكل ذلك كان بهدف تصريف أزمتها على حسابنا، والتي كانت تتمثل في الخصاص المهول الذي وقع في فرنسا من جراء الحرب العالمية الثانية.

وقد وجدنا لأنفســنا وجبات من الجراد، والنباتات والحشـــائش على قلتهما، والبلوط، كبديل لمقاومة الجوع . كما صــرنا نطارد الحيوانات، ونفتش عنها في الجبال والوديان والســهول من أجل اصــطيادها وأكلها. فلم نعد نبالي إذا كان أكلها حراماً أم حلالاً، وكل ما شــغل بالنا هو ملء بطوننا، وبطون صغارنا. ومن الناس من كان يبيع قطعاً أرضية مقابل خبزة واحدة ! في الوقت الذي فضــل فيه البعض الآخر بيع جميع أملاكه والهجرة إلى المدينة، على أمل أن يجد هناك ظروفا أفضل. إلاّ أن صدمتهم كانت عنيفة فور وصولهم ورؤيتهم للجثث وهي متناثرة في الشـوارع تنهشـها الكلاب ! ولم يتوقف الأمر عند هذا فقط، بل تفشـت الأمراض والأوبئة بســبب الجوع وقلة النظافة، فظهرت الحمى الصـــفراء، والتيفوس، والزهري، والسل. أمراض فتكت بعشرات الآلاف من المواطنين، بمن فيهم أحد أخوالك رحمه الله.

لقد طويت صــفحة **"عام الجوع"** مع أول هطول للأمطار، واســتجاب الله لدعواتنا، فرحمنا بســنوات من الخير والخصــب. ومعها اندملت جراحنا نســبياً، وبقيت عاقدا العزم على عدم

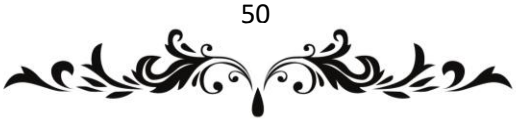

الزواج، ولكن فكرة كهذه أمام قوة الواقع هي مجرد كلام فارغ لا غير، وهكذا تزوجت كرة أخرى.

وما إن وطأت قدما زوجتي الثانية البيت حتى عم معها الخير الوفير. وقد كانت امرأة شاطرة، وصاحبة واجب، والحق أنها خلقت لتغمر الناس حباً وكرما. رزقت منها بطفلة، وفقدتها عند الولادة الثانية، إذ ماتت المسكينة والجنين الذي كان في بطنها. وبوفاتها دخلت مجدداً في دوامة من الحزن والأسى. وكم مرة رأيت الموت يتوارى وراء الباب ويتطلع إلي بمكر واستهزاء ! وقد كنت أخاله قد جاء من أجلي، غير أنه كان يأتي شامتا فقط .

- وهل الموت يُرى يا جدي؟
- أجل يا صغيري أجل، لقد رأيته عدة مرات، ورجوته أن يأتي من أجلي، وأخبرته

أن الفقد المتواصل قد أرهقني، وأن علة جسدي تعذبني. لقد تضرعت إليه صاغرا أن يخلصني من لعنة الحياة، لكن الجبان كان يأبى .

- وما سر لقب **"السعد"** يا جدي؟ فالقليل من يعرفك باسمك الحقيقي.
- **"السعد"**

قهقه جدي مطولاً، وضرب كفا بكف، ثم قال وقد تحررت مهجته من أوزار الكدر والغم :

- وأما هذه فحكاية جميلة من زمن الصحة والعافية، وبأس سن الأربعين. لقد كنت

يومها أراقص سيدة في أحد الأعراس، وفي لحظة الفرح الغامرة والتماهي مع العزف والانبهار برقصها المنتظم، بدأت أفرش لها طرف جلبابي وأردد : السعد .. السعد .. السعد...، فأخذها أصدقائي عني ولقبوني بها إلى يومنا هذا.

- يبدو أنك كنت صاحب شخصية مرحة يا جدي ؟
- بكل تأكيد يا بني .. بكل تأكيد .
- وزوجتك الثالثة ؟

- زوجتي الأخيرة أنت عرفتها يا بني، وولدت في حياتها.
- أجل رحمها الله، لقد كانت تحسن معاملتي وتحبني كثيراً، وقد رأيتك يوم وفاتها

حزيناً تذرف الدمع كطفل صغير!

- لأنني لم أكن أتوقع وفاتها قبلي، وقد كانت المسكينة تعينني، وأنا الشيخ العليل،

على تدبر وقضاء العديد من أموري الشخصية. ولأصدقك القول يا بني، فقد رأيت حالي بعدها في صورة سيئة مزرية.

- لكنك تملك أبناء وبنات يحسنون معاملتك، وهذا مكسب كبير في آخر العمر يا

جدي.

- لندع هذا الشأن جانباً لو سمحت يا بني.
- أعتذر منك يا جدي، فيبدو أنني قد أزعجتك كثيراً.
- بل آنستني وملأت وحشتي.
- وبدوري سررت جداً بحديثنا الشيق هذا، وعندي سؤال أخير لو تكرمت يا جدي

قبل أن أدعك لترتاح قليلا.

- تفضل يا صغيري .. تفضل !
- سأسألك بخصوص والدتي وعدم التحاقها بالمدرسة. فهل هذه الأخيرة لم تكن

موجودة حينها ؟ أم أن هناك أسبابا أخرى ؟

- بلى يا بني .. بلى، لقد كانت المدارس بأعداد قليلة، وكنا نرسل إليها الذكور دون

الإناث. ولا زلت أتذكر يوم جاء مبعوث من دار المخزن يطالبني بإرسال والدتك وخالتك إلى المدرسة، إلا أنني فضلت قضاء أسبوع في السجن على إرسالهما معه.

- غريب هذا !

- هو كذلك الآن يا بني، أما وقتها فكان طبيعياً، وكنت سأكون أعجوبة زماني لو أنني تجرأت وأرسلتهما.

لحظتها دلفت خالتي إلى الغرفة، فقطعت حديثنا الذي كان قد أوشـــك على الانتهاء، وبعدما ألقت التحية على كلينا طالبتني بالخروج حتى يتسـنى لها إعطاء الدواء لجدي، وتغيير ثيابه. فأذعنت لطلبها عن طيب خاطر، وقبلت جدي، وأخبرته بأن لقاءنا سيتجدد غداً بحول الله.

وفي الغد عدت لزيارته واسـتئناف حديثنا، إلا أنني وجدت المسـكين وقد سـاء حاله. وما إن رمقني حتى لوح إلي بيده أن أقترب منه، فدنوت منه كما أمر، وهمس في أذني بصـــوت متقطع :

- أخيراً سأرتاح مني .

وفجر ذلك اليوم، وفي غفلة من الجميع سلم روحه لبارئها.

سوء في التقدير

عند باب الوكالة البنكية وجد الموظفون الجدد مديرها بانتظارهم، فاســـتقبلهم بحفاوة كبيرة وترحيب قائلاً :

- مرحبا بكم .. أهلاً وسهلا بكم جميعاً .. أنا الطاهر القنفودي، مدير البنك الفرعي الذي عينتم به. يسـعدني أن أبارك لكم تعيينكم، وأرحب بكم . وبإذن الله تعالى سـنكون فريقاً منســـجما يحقق الأهداف المرجوة من افتتاح الفرع بهذه البلدة، ويكون عند حســـن تطلعات الزبناء.

فرد الموظفون التحية والترحيب بأحسن منهما، وأطرقوا منصتين لمديرهم، وهو يقول لهم :

- وكما تعلمون فقد كان اليوم مبرمجا للافتتاح الرسمي لوكالتنا. لكن، وكما ترون فالأشـغال ما تزال مسـتمرة، وربما يلزمها بضـعة أيام أخرى حتى تتم . وبناء على هذا، فقد قررت الإدارة المركزية منحكم أربعة أيام عطلة تبدأ من يوم غدٍ، ومعها تذاكر ســـفر إلى مدينة طنجة، وإقامة في فندق سياحي مصنف.

كف قليلاً، ثم استتلى :

- غداً في الثامنة والنصف صباحاً ستجدون حافلة تابعة للمؤسسة في انتظاركم.

أتمنى لكم مقاما طيباً، وعطلة سعيدة.

وكم سُرّ الموظفون بكلمات مديرهم ! وكم استبشروا خيراً بما يحدث معهم على اعتبار أنه أول يوم في الوظيفة الجديدة ! وأما كرم المدير فلم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى حد مساعدتهم جميعاً في الحصول على السكن، فاكترت سارة شقة صغيرة في نفس البناية التي

تتواجد فيها الوكالة البنكية، واكترى الشباب شقة واحدة. ومن فورهم انكبوا جميعاً في ترتيب الأغراض، وتحديد الناقص منها حتى يتم اقتناؤه وجلبه في وقت لاحق.

في الصـــباح انطلق الأصـــدقاء الجدد للاســـتمتاع بعطلتهم. وأثناء توقفهم في إحدى باحات الاستراحة لتناول وجبة الغداء، اقترح أيوب عليهم إعداد برنامج للعطلة حتى تكون الاستفادة منها بشكل جيد من جهة ، وحتى يفسح المجال أمامهم للتعارف من جهة ثانية. فاستقر رأيهم على أن يخصـــص النهار للأنشـــطة الحرة، والليل للتعارف، بحيث تمنح لكل فرد منهم ليلة خاصة به.

وفور وصولهم باشروا أنشطتهم النهارية، والتي توزعت بين السباحة وزيارة مغارة هرقل واقتناء بعض الملابس والأغراض، بالنسبة لأيوب ومنصور وزهير. بينما ارتأت سارة أن تقضي عطلتها بأكملها في اقتفاء أثر كاتبها المفضل **محمد شكري**، مستغلة زيارتها الأولى لمدينة طنجة الســـاحرة، والغارقة في عمق التاريخ وجغرافيا المكان. ومن يومها الأول قصدت مقهى الحافة، فطلبت كأس الشاي الشهير، وجلست خاشعة في حضرة الإطلالة البهية على القارة الأوروبية هناك في الضـــفة المقابلة. ســـألت النادل عن المكان الذي كان يجلس فيه محمد شـــكري، فدلها على مكانه الأول عند المدخل، فالمكان الثاني في الأســـفل، حيث يمتزج صدى أمواج البحر المتكسرة على الصخور بصوت النوارس، فيقطعان الهدوء ويضفيان على المكان رهبة وإجلالا.

وفي الأيام الموالية زارت الســـوق الداخلي، الذي اســـتلهم منه كاتبها المفضـــل أحد أعماله الأدبية، فســـألت عن مقهى طنجيس، ومقهى المركز، ومقهى إلدورادو، ومقهى الروكســـي، وزارتهم جميعاً. وقد اختتمت تكريمها المتواضـــع لمحبوبها الأدبي بزيارة قبره المتواجد بمقبرة مرشان، فقبلته، ووضعت فوقه باقة ورد.

أما الليالي فتوزعت كما اتفق عليه سابقاً، وقد تم تحديد مسبح الفندق كمكان لجلساتهم.

فكانت الليلة الأولى من نصيب أيوب، وفيها تحدث عن مجال تنشيط الحفلات والأعراس

الذي كان يشتغل فيه طيلة سنواته الجامعية قائلاً :

- يومها كنت طالبا جامعيا في أمس الحاجة إلى المال لمتابعة الدراسة، وكون هذه

المهنة موسـمية تتزامن مع وقت العطلة الصـيفية، فقد ناسـبتني إلى حد بعيد. وقد تشـابهت الحفلات إلى درجة الملل، بدءا بالوجبات المتطابقة، مروراً بأنواع الحلويات والمشـــروبات المقدمة، وصـولاً إلى الأزياء وحب الظهور الذي كان يتقنه الجميع، دون السكارى طبعا فقد كانوا ملح الليالي برقصـاتهم، وبشـخصـياتهم المتحررة من قيود الحفلة التنكرية. وقد أحببتهم لصدقهم، ولما كانوا يجودون به علي من دراهم مقابل ذكري لأسمائهم وأسماء أصدقائهم.

لقد تشابهت الليالي كما أخبرتكم يا أصدقاء، غير أن بعضـها كان مميزاً، فترسخ في الذاكرة. وكم يســعدني في هذه الجلســة الجميلة أن أروي لكم ما عشــته، وعاينته من أمور غريبة ! ولعل ليلة البندقية، كما أحب أن أطلق عليها، هي الأغرب. ففي تلك الليلة أخذ والد العريس بندقية البارود التقليدية، فجعل يرقص بها. وفي سـورة الفرح سـحب الزناد فلم تطلق، فأعاد الكرة ولم تستجب من جديد، فرماها أرضاً وخرج غاضباً. ولما سألت أحد الجالسين بقربي أطلعني بأن العروس بندقيتها فارغة، وذاك نذير شـــؤم ! وبعد مرور ســـاعة تقريباً ظهر العريس متعثرا في جلبابه، فقصدني مباشرة وطالبني بتوقيف الموسيقى، وإخبارهم أن الحفل قد انتهى، ففعلت ما أمرت به. وما إن جمعت أغراضـــي حتى أخذت وســـادة وتمددت على الحصير أنتظر حلول الصباح، وأراقب ما كان يجري.

أُشعلت الشموع، فأُحضرت سيدة عجوز، تشي هيأتها بأنها عرافة أو ما شابه، ودخلت برفقة الزوجين إلى الغرفة، وبقوا فيها ثلاثتهم. لقد فاتني ما جرى هناك، لكن الأكيد أنه تجاوز المشكلة، وقد كان ظهوره والابتسامة تعلو محياه أكبر دليل على ذلك.

شـبيه هذا الأمر حصـل في ليلة أخرى، لكن بتفاصـيل مغايرة. وطبقاً للعادات والتقاليد فقد زفت العروس إلى زوجها ليلتها. بيد أن العريس خرج فجأة علينا وهو يصرخ بأعلى صوته بأن زوجته ليست بكرا ! فخيم صمت رهيب على المكان، قبل أن يقطعه والده قائلاً :

- سنعيدها لأهلها بالموكب المهيب الذي أحضرها !

فإذا بالموكب ينطلق على وقع أصوات أبواق السيارات، وإذا بالصيحات والزغاريد تتعالى كلما اقترب، حتى إذا دنا أسطول السيارات من منزل العروس خرج والدها لإلقاء نظرة حول ما يحصل. وكم صعقا وهما يشاهدان ابنتهما تطرح أرضاً ! وبينما سارعت الأم مرتاعة لاحتضان ابنتها وإدخالها إلى البيت في جو من البكاء والنحيب، تسمر والدها في مكانه وهو يحاول استسغاء الفاجعة التي حلت به. وبخطى ميتة اقترب من ابنته، فخاطبها والدموع تترقرق في مقلتيه :

- من الفاعل؟

فردت المسكينة، وقد امتقع لونها، وتهدج صوتها :

- لا أحد يا أبي.. لا أحد. أنا ابنتك وأنت تعرفني حق المعرفة، فكيف لي أن أدفن وجهك في التراب .. كيف يمكنني ذلك ؟ كيف؟

- وهذا الذي حصل للأسف الشديد .
- خذني إلى الطبيب وتأكد يا أبي، وإذا وجدتني كاذبة، فافعل بي ما تراه مناسباً لك.

وبالفعل فقد تم أخذ المسكينة إلى طبيبة البلدة، فأكدت أنها ما تزال بكرا. وهكذا انقلبت موازين القوى، فصدقت العروس وكذب العريس. لتبدأ بعدها محاولات تصفية الأجواء، وإعادة الزوجة إلى بيتها. غير أنها رفضت أن تعود إلى حضن من اتهمها، وافترى عليها زوراً وبهتانا، فتطلقت منه وزفت بعدها لابن عمها.

وفي الليلة الثانية حكى منصور عن أصله المغربي العراقي قائلاً :

- أما أنا يا أصـدقاء، فمن أم مغربية وأب عراقي. وقد صـادف أن جاء أبي ضـمن وفد دبلوماسـي إلى مدينة مراكش، وكانت أمي تشـتغل حينها في مكتب اسـتقبال الفندق الذي نزلوا فيه. وهناك حدث اللقاء، فالتعارف، فالعودة من أجلها والزواج منها، وأخذها معه إلى العراق.

ولدت هناك في العاصمة بغداد، ونشأت وسط اللهجتين العراقية والمغربية. لقد فتحت عيني على المطبخين، المغربي بأطباقه المتفردة من : الكسكس، والبسطيلة، والطاجين، والبيصارة والحريرة والسـفة...، والمطبخ العراقي بوجباته اللذيذة من : الدولمة، والمسـكوف، والكباب والقوزي، والتشريب، والمقلوبة ...

لقد عشـــت وإخوتي دائماً على أمل المجيء إلى المغرب ورؤية الأهل والأحبة. وكم كنا ننتظر بشـغف عودة والدينا من المغرب عند كل زيارة لهما، فكنا نتحلب شـوقاً لمعرفة آخر أخبار خالاتنا، وأخوالنا، وأبنائهم. ونســـتمتع بما حفظته والدتنا هناك من حكايات جدتنا : حكاية حديدان، والغول، وعائشة قنديشة ...

وبحكم وظيفة والدي، فقد كانت أمورنا المادية بألف خير. إلا أن حلت لعنة الحرب، فوجدنا أنفسـنا في موقف صـعب بعد خسـارتنا لكل ما كنا نملك تقريباً. فكان الحل أن نقصـد بلدنا الثاني المغرب، فقصـدناه وأكرمنا. في البداية واجهتنا بعض المعيقات المتعلقة بالاندماج في البيئة الجديدة، غير أن كل الصعاب تم تدليلها بمساعدة والدتنا، فكونها مغربية ساعدنا كثيراً. وبعد انتهاء الحرب وتراجع حدتها، عاد جميع أفراد أسـرتي إلى العراق إلا أنا، فقد فضـلت البقاء والاستقرار هنا.

في الليلة الثالثة جاء الدور على سارة، فحكت عن مرحلتها الجامعية قائلةً :

- إن أول ما شد انتباهي، مع أول تواجد لي داخل الحرم الجامعي، كان نقاشات

الطلبة والطالبات، وكم أعجبت بجرأتهم !

ورويدا رويداً أخذت أتحرر من قيود بلدتي الصغيرة حيث كان يقطن والداي، وحيث درست حتى حصولي على شهادة الباكالوريا. فارتحت لسطوة المدينة، ولانصهار الفرد داخل زحامها وصخبها. وبرفقة صديقاتي جعلنا نسبر عوالم كانت مغيبة عنا تماماً، فاستجبنا لبعض رغباتنا التي كانت في طي النسيان. وكما هو معلوم فالأمور في بداياتها غالباً ما تكون جميلة، بيد أنها ما انفكت أن انقلبت رأساً على عقب. فقد أدركت أنني صرت بعيدة عن التحصيل الدراسي، وأن ما أصبحت أتقنه هو التوغل صوب المجهول، فأعدت ضبط البوصلة من جديد بعد ثلاث سنوات من التيه. فأدمنت قراءة الكتب والروايات، وكابدت حتى تخلصت من الفتاة الضعيفة التي كنتها، وانطلقت كالسهم في رحلة البحث والتحصيل، فجاءت النتائج مشجعة، واستمريت في بذل الجهد بنسق تصاعدي حتى آخر يوم في الجامعة.

وأما ختام الليالي فكان من توقيع زهير، والذي فضل الحديث عن قصة عشقه التي

عاشها في الجامعة :

- سأروي لكم يا أصدقاء عن قصة حبي، والتي لم يكتب لها الوصول إلى بر

الأمان، وكل ما كان من نصيبها هو الضياع وسط اللجة، لجة الأنانية والكبرياء الزائف. لقد جمعتني ومحبوبتي لحظات عشق ووجد صادقة، وفرقتنا أسباب تافهة. لقد كنا كعصفورين داعبت الرياح جناحيهما لأول مرة. وأما آمالنا، فضارعت السماء في علوها والجبال في شموخها. خططنا للجامعة ولما بعدها، واخترنا أسماء أطفالنا، ورسمنا معالم حياتنا الحاضرة والقادمة. لم نحفل بسطوة الأقدار وقوتها الجارفة، وهي تنسج الأكفان على مقاس كل واحد منا.

وما هي إلا أن حدث ما حدث، فتزوجت وذهبت في حال سبيلها، بعدما قررت أن تفعل ذلك من باب أن لامجال لها للانتظار، وأن التجربة الجديدة ستغنيها عني، وستحررها من قيودي وقيود المجتمع وأسترها الصغيرة. أقول لكم هذا ولا ألومها في شيء إطلاقاً.

لأجد نفسي وحيداً أصارع من أجل البقاء ضد كل تعقيدات الحياة الجديدة التي فرضت علي قسراً. وقد كنت على غير استعداد لتجاوزها وحدي، دون سندي ورفيقتي. دون شمسي وقمري. دون هوائي ودافعي للوجود.

حقاً إنه لأمر رهيب جداً أن تعيش دون من تستطيع أن تكون في حضنه شخصك الحقيقي ! فهذا يشبه إلى حد بعيد أن يكمل الجنين أيامه الأخيرة، قبل الولادة، في مكان زجاجي تتوفر فيه حياة زائفة بعيدة كل البعد عن دفء رحم الأم، أصل المعجزة الكبرى .

وقد كان أول خطاب داخلي مع كياني وقلبي على السواء هو أنني سأنسى كل شيء، وسأسعى لذلك بكل ما أوتيت من قوة. فأخذ العقل، بتحفيز مني، في كبح جماح العاطفة المستعرة، ولملمة النفس المعذبة المعلقة بأهداب عشقها. ولكن أي سلطان للعقل على النفس أثناء النوم ؟

نعم إنها الأحلام متنفس الروح، وباحة استراحة لذواتنا المعذبة. فهناك كنت أراها، وأضمها، وأشم رائحة عطرها. تذكرت الرائحة، أي سحر فيها ! وأي عزاء لي في فقدانها ؟

لقاءاتنا كانت لا تنقطع ، فكلما مارست رقابة على نفسي أثناء اليقظة، كلما زادت نداءات الروح لطيفها الجميل. فكنا نتبادل آخر أخبارنا، والتي كانت متشابهة إلى حد كبير، فكلانا كان يعيش نفس المأزق الوجودي، و يؤرقه نفس السؤال : لماذا ؟ وكيف حصل الذي حصل؟ فكنا نسخر من فعلتنا النكراء، ونتساءل عن وقت الخلاص، وقت عودة الروح إلينا؟ وبعد كل حلم كنت أستيقظ مذعورا باكيا صارخاً، وكل ما بحوزتي هو حلم وغربة ذاتية !

قصــة عشــق زهير حركت المشــاعر الدفينة في قلب ســارة، فاســتعادت كلماته في خلوتها، وتذكرت في أكثر من مرة بريق عينيه، وتهدج صـوته وهو يحكي عن محبوبته. لقد رأتها في عينيه متربعة على عرش قلبه، وسمعت صوتها يصدح من خلال صوته، فاعترتها الغيرة الشـديدة في كل مرة اسـتحضـرت كلامه. إنها أنثى، والأنثى لا تغفر لمن يتحدث عن أخرى في حضورها. وهذا ما لم يكن يدركه زهير على ما يبدو !

وبمضي الزمن نمت مشاعرها اتجاهه، ومع ذلك فقد كانت قد عقدت العزم على ترك العلاقة معه في إطار العمل لا أكثر. لكنها كانت تسـتسـلم لقلبها كلما أسـرفت في الشـرب، فشـرب الخمر كان هو سرها الصغير الذي بقي معها منذ أيام الجامعة !

حاولت سـارة جاهدة لفت انتباه زهير إليها بشـتى الطرق المتاحة، وقد لاحظ أيوب ومنصـور محاولاتها المتكررة للتقرب من صـديقهما، غير أنهما التزما الصـمت، وفضـلا عدم التدخل. وأما ما جنته سـارة دائماً، فكان اللامبالاة والتعامل الرسـمي في إطار العمل. ولما ضـجرت من برودته فكرت في مصــارحته بشـكل مباشـر، فهمت أن ترفع سـماعة الهاتف وتقول له بأنها تحبه، وأنها على اســتعداد تام لمســاعدته حتى يتخلص من الجراح الغائرة والذكريات الموجعة التي تقيد انطلاقته لاحتضـــان الحياة مجدداً. غير أنها وضـــعت كرامتها في الكفة المقابلة، ففضلت الخلود إلى النوم !

وبمضـي ثلاثة أشـهر تقريباً ، أعلن مدير الوكالة البنكية زواجه من سارة، وبعد ذلك بأسبوع جاء أمر بتعيين زهير في وكالة أخرى !

الفهرس

إهداء 3

نبذة عن المؤلف 4

إلى مْهِلكتي.....6

اليتيم.....10

الغرفة 312.....17

فيضان النهر.....24

دوالب الزمن.....27

مذكرات فتاة عانس.....35

بامبينو.....40

البوح الأخير.....48

سوء في التقدير.....54